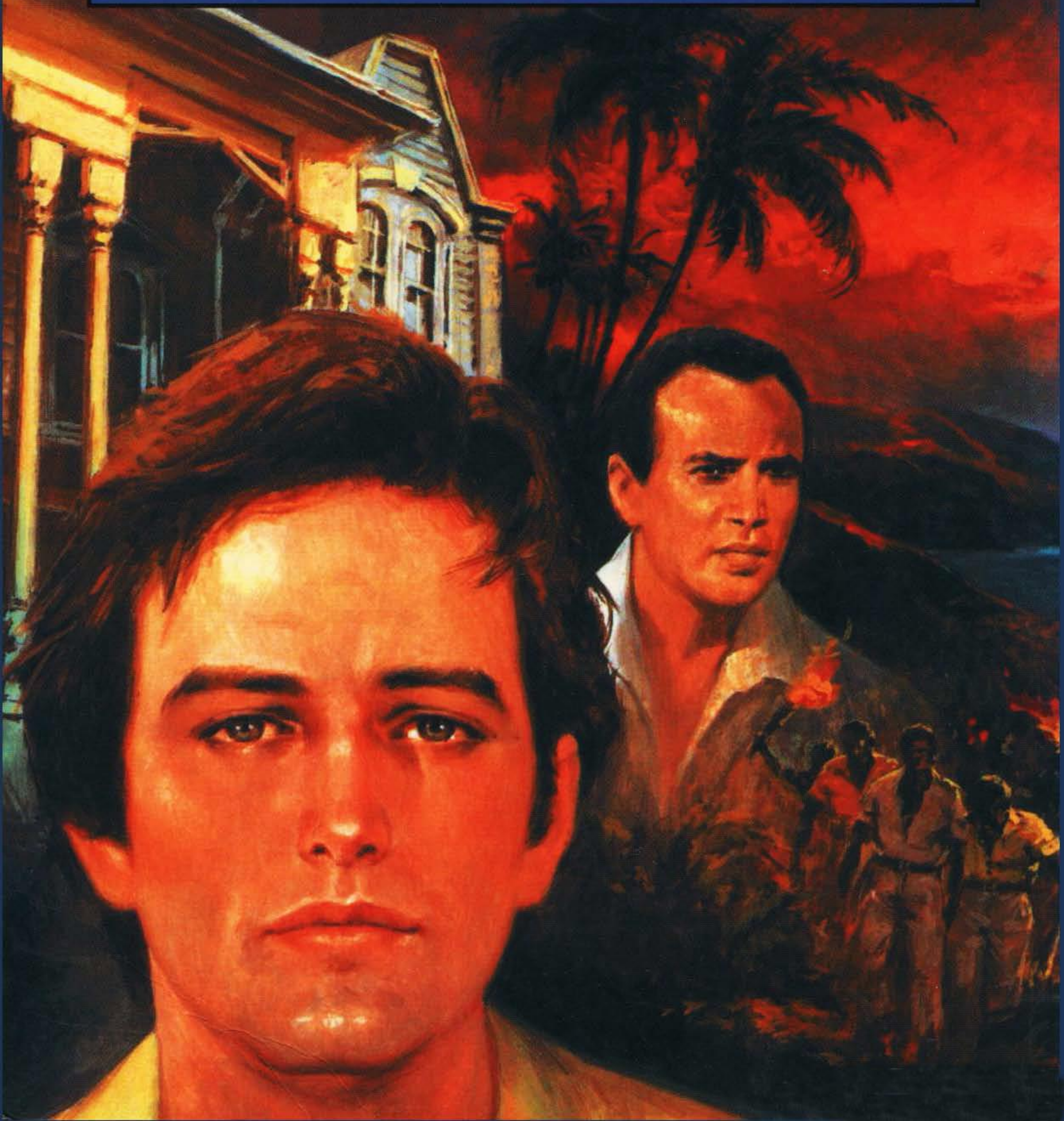
2

روائع الأدب العالمي

الخمسمائة مليون ثروة البيجوم

تأليف الكاتب الفرنسي

جول ڤيرن





الخمسمائة مليون ثروة البيجوم

الخمسمائة مليون
ثروة البيجوم

تأليف
جول فيرن

ترجمة
داليا محمد حسين

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت
تلفون : 674 803 1 961 00 فاكس : 223 790 1 961 00
E-mail : darbachir@terra.net.lb

الإسم الأصلي للكتاب

LES CINQ CENTS MILLIONS

DE LA BEGUM

إسم المؤلف

Jules VERNE

مقدمة

خمسة ملايين فرنك؛ ثروة البيجوم"**جوكول**"!

لايستطيع الدكتور "**سارازان**" أن يصدق عينيه ! أخيراً

سيصبح حلمه حقيقة: مدينة مثالية حيث يسود التوافق والسلام بين البشر.

ولكن ها هو هر "**شولتز**" يعلن عن نصيبه في الميراث.

ومشروعاته مختلفة تماما في طبيعتها عن مشروعات الدكتور "**سارازان**".

الشخصيات

دكتور "**سارازان**" : دكتور له اتجاهات إنسانية. وهو فرنسي.

هر "**شولتز**" : أستاذ كيمياء. ألماني الجنسية.

"**مارسيل بروكمان**" : شاب ذكي . مهندس . صديق ابن الدكتور "**سارازان**" .

"**أوكتاف**" : ابن الدكتور "**سارازان**" .

البيجوم "**جوكول**" : الأميرة الهندية صاحبة الثروة الطائلة التي خلفتها لتصبح ميراث الدكتور "**سارازان**" .

الفصل الأول

عندما دخل السيد "شارب"

قال الطبيب الطيب محدثا نفسه وهو يستند إلى مقعده الجلدي الوثير:

- هذه الجرائد الإنجليزية متقنة الصياغة حقاً.

لقد مارس الدكتور "**سارازان**" محادثة نفسه طوال حياته وهي وسيلةللتلهي.

إنه رجل في الخمسين من عمره، ملامحه دقيقة، عيناه يقظتان تحت النظارة المعدنية، له هيئة مهيبة، وفي نفس الوقت ودودة، واحد من هؤلاء الذين يقال عنهم من أول وهلة: ها هو رجل شجاع، في هذه الساعة المبكرة،كان الدكتور حليق الذقن يرتدي رابطة عنق بيضاء.

على السجادة، وعلى أثاث حجرة الفندق في "**بريتون**" تناثرت صحف "**التايمز**"، "**ديلي تلجراف**" و"**ديلي نيوز**". دقت الساعة العاشرة بالكاد، وكان الدكتور قد وجد وقتا ليقوم بجولة في المدينة، وأن يزور مستشفى، وأن يعود إلى الفندق حيث يقيم ويقرأ في الجرائد الرئيسية في "**لندن**" تقريرا موسعا عن مذكرة كان قد قدمها أمس الأول في مؤتمر دولي كبير عن الصحة موضوعه،"حساب كرات الدم" وهو مخترعه.

أمامه صينية مغطاة بمفرش أبيض عليها ضلع ناضج تماما، قدح شاي يتصاعد منه الدخان وبعض من وحدات الخبز المحمر في الزبد الذي برع في صنعه الطهاة الإنجليز، بفضل الخبز الخاص الذي يزودهم به الخبازون.

تردد الدكتور:

- نعم، إن جرائد المملكة المتحدة جيدة الصياغة حقا، لايستطيع أحد أن يقول عكس ذلك!

حديث نائب الرئيس، رد دكتور "**سيكونيا**" من "**نابل**"، مذكرته، كل شيء التقط بسرعة، وفي حينه ومصورا."

" الكلمة للدكتور "**سارازان**" من "**دويه**" المشارك الموقر يتحدث بالفرنسية. قال

الدكتور مستهلا كلامه: " أرجو المعذرة إذا سمحت لنفسي بهذه الحرية، ولكنهم سيفهمون أفضل بالتأكيد لغتي من أن أفهم أنا لغتهم".

" خمسة أعمدة في نص صغير!.. لست أدري أيهما أفضل : تقرير"**تايمز**" أم "**تلجراف**"؟ لايوجد ما هو أكثر دقة وصوابا:

كان الدكتور "**سارازان**" سابحا في أفكاره عندما دق رئيس المراسم بنفسه الباب – لايجرؤ أحد على أن يطلق لقبا أقل من ذلك على شخص يرتدي ملابس سوداء بهذه الأناقة – وسأل إذا كان "**مسيو**" موجودا.

"**مسيو**" هو النداء العام الذي يعتقد الإنجليز أنهم مجبرون لاستخدامه في نداء كل الفرنسيين بدون تمييز ، حتى إنهم يتخيلون أنفسهم مفتقدين لكل قواعد المدنية ما لم يشيروا إلى أحد الإيطاليين بلقب "**سنيور**" أو الألماني بلقب "**هر**" ربما يكونون على حق. هذه العادة الروتينية لها بدون شك فائدة وهي الإشارة إلى جنسية الأشخاص.

أخذ الدكتور "**سارازان**" البطاقة التي قدمت إليه دهشا لتلقيه زيارة في بلد لايعرف فيه أحدا ، وقد زادت دهشته عندما قرأ على المربع الورقي الصغير.

" السيد "**شارب**"، محام.

٩٣، "**ساوثامبتون رو**"

"**لندن**".

كان يعرف أن "محامي" المرادف الإنجليزي "لوكيل دعوى" أو على الأحرى رجل قانون ، بين موثق عقود ووكيل دعوى ومحام أو – نائب كما كان يقال قديما.

سأل نفسه " ماذا هناك لكي أناقشه مع السيد "**شارب**"؟"

هل ارتكبت عملا سيئا دون أن أعرف؟

استطرد:

– هل أنت متأكد أنه من أجلي ؟

– أوه نعم سيدي.

- ايه حسنا دعه يدخل.

أدخل رئيس المراسم رجلا مازال شابا، صنفه الدكتور من أول وهلة من عائلة" **الموميـاوات**" شفتاه الرفيعتان أو على الأحرى الجافتان، أسنانه الطويلة البيضاء، تجويف خديه تحت جلد رقيق ، لونه شاحب كالمومياء وعيناه الرماديتان لهما نظرة ثاقبة، مما لايدع شكا فيما ذهب إليه من وصف. كان هيكله يختفي تحت معطف فضفاض ذي مربعات كبيرة ويده تمسك بمقبض حقيبة سفر من الجلد اللامع.

دخل هذا الشخص وألقى بالتحية سريعا، وضع على الأرض حقيبته وقبعته، وجلس دون استئذان وقال:

- "**ويليام هنري شارب چونيور**"، شريك في بيت "**بيلوز،جرين شارب**" وشركاه. هل الدكتور "**سارازان**" هو من لي شرف محادثته؟

- نعم ياسيدي.

- "**فرنسوا سارازان**"

- هذا في الحقيقة اسمي.

- من "**دويه**"؟

- "**دويه**" محل إقامتي - والدك يدعى "**ايزيدور سارازان**"

- هذا صحيح.

- يدعى إذن "**ايزيدور سارازان**".

سحب السيد "**شارب**" مفكرة من جيبه ، نظر فيها واستطرد :

- توفي "**ايزيدور سارازان**"في "**باريس**"في ١٨٥٧، الدائرة السادسة شارع "**تاران**"، رقم٥٤ فندق"**ديزيكول**"، خرب حاليا .

قال الدكتور ودهشته تتزايد.

- في الحقيقة. لكني، هلا فسرت لي؟

تابع السيد:

- اسم والدته"**چولي لانجيڤول**" .تنتسب إلى "**بارلودوك**" ابنة "**بنديكت**

لانجيـڤـول"، ماتت في ١٨١٢ كـمـا هو مدون في سـجلات بلدية هذه المدينة.. هذه السجلات بـالغة القيمة ياسيدي، بالغة القيـمة! هم!.. وأخت "**چون چاك لانجيـڤـول**"، رئيس الطبالين في فرقة عسكرية.

عندئذ قال دكتور "**سارازان**" مبهورا بهذه المعرفة المتعمقة لشجرة عائلته.

– أعـتـرف أنـك تبـدو عـالما بـهـذه النـواحي أفضـل مني، هذا صـحـيح، إن اسم عـائلة جدتي هو "**لانجيڤول**"، ولكن هذا كل ما أعرفه عنها.

– غادرت نحو ١٨٠٧ مدينة "**بارلودوك**" مع جدك "**چون سارازان**" الذي تزوجته سنة١٧٩٩ . استقرا في "**مالون**" وعملا في (السمكرة) وبقيا فيها حتى ١٨١١ تاريخ وفاة "**چولي لانجيڤول**" أي السيدة "**سارازان**" منذ زواجهما لم ينجبا سوى طفل واحد "**ايزيدور سـارازان**" والدك . منذ هذه اللحظة فقد الخيط ، إلا تاريخ وفاة والدك الذي وجد في "**باريس**".

قال الدكتور الذي انساق رغما عنه بسبب هذه الدقة الحسابية .

– أستطيع أن أوصلك بهذا الخيط. ذهب جدي ليستقر في "**باريس**" من أجل دراسة ابنه الذي قرر دراسة الطب.

مات سنة ١٨٣٢ في "**باليزوا**" بالقـرب من "**ڤرساي**" حيث مارس والدي مهنته وحيث ولدت سنة١٨٢٢ .

استطرد السيد "**شارب**":

– أنت الرجل الذي أبحث عنه . ليس لديك أخوة ولا أخوات؟

– لا! كنت ابنا وحيدا وماتت أمي بعد ولادتي بسنتين.

لكن أخيرا ياسيدي هلا قلت لي؟ نهض السيد "**شارب**".

قال بـاحـترام يستخدمه كل إنجليزي عندما ينطق لقبا نبيلا : "سير **برياه چواهيـر موثوراناث**"، أنا سعيد لأني اكتشفتك ولأني أول من يقدم لك تحياته:

فكر الدكتور:

" هذا الرجل مجنون" .

قرأ المحامي هذا التشخيص في عينيه.

أجاب في هدوء:

" لست مجنونا على الإطلاق. أنت في هذه اللحظة الوريث الوحيد المعروف للقب البارونية وفقا لتعريف الحاكم العام لمقاطعة "**البنجال**"، يمنح "**جون -جاك لانجيفول**"، المتجنس بالجنسية الإنجليزية سنة ١٨١٩، أرمل "**البيجوم جوكول**"،. المنتفع الوحيد لثروتها توفي سنة ١٨٤١ لم يترك سوى ابن واحد ، هذا الأخير مات قبله وبدون خلف له ، عاجز وبدون وصية سنة ١٨٦٩ . ارتفعت التركة منذ ثلاثين عاما حتى بلغت حوالي خمسة ملايين جنيه استرليني. ظلت تحت الحراسة القضائية والوصاية ، وانضمت الفوائد إلى رأس المال بالكامل تقريبا أثناء حياة الابن الغني لـ"**جون - جاك لانچيفول**"، قدرت هذه التركة سنة ١٨٧٠ بمبلغ واحد وعشرين مليون جنيه استرليني، أي خمسمائة وخمسة وعشرين مليون فرنك، تنفيذا لحكم محكمة "**أجــرا**"، الموثق من محكمة "**دلهي**"، والمصدق عليه من المجلس الخاص.

بيعت الممتلكات العقارية والمنقولات ، المبالغ المحصلة والحساب الكلي أودع وديعة في بنك "**إنجلتــرا**" وهي حاليا خمسمائة وسبعة وعشرون مليون فرنك تستطيع أن تسحبها بشيك بسيط بمجرد أن تثبت نسبك إلى العائلة في المحكمة، وعلى هذا الأساس، أقدم لك من اليوم من خلال الممولين السيد"**ترولوب، سميث وشركاه**" أي مبلغ على الحساب.."

كان الدكتور "**سارازان**" مذعورا . بقي لحظة دون أن ينبس بكلمة . ثم لذعه فكره النقدي الذي لم يستطع أن يقبل حلم "الألف ليلة وليلة، صاح:

" لكن بعد كل حساب ياسيدي ، ما البراهين التي تعطيها لي من هذه القصة، وكيف وصلت إليّ؟

أجاب السيد "**شارب**" وهو يخبط على الحقيبة الجلدية اللامعة:

– البراهين هنا. أما بالنسبة للطريقة التي توصلت بها إليك ، فهي طبيعية للغاية.

إنني أبحث عنك منذ خمس سنوات.

القرابة أو "النسب" كما نسميه في القانون الإنجليزي ، للتركات العديدة التي لايوجد لها وريث والمسجلة طوال السنوات تحت الوصاية البريطانية هي خصوصية لمكتبنا. أو، على وجه الدقة ، إرث البيجوم "**جوكول**" يشكل نشاطنا منذ خمسة أعوام كاملة .

شملت تحقيقاتنا كل الجوانب، استعرضنا ما يقرب المائة من عائلات "**سارازان**"، دون أن نجد العائلة المنحدرة من "**ايزيدور**" حتى إنني وصلت إلى الاعتقاد بأنه لايوجد "**سارازان**" آخر في "**فرنسا**"،وصدمت صباح أمس عندما قرأت في "**ديلي نيوز**" تقرير مجلس الصحة. حيث رأيت دكتورا بهذا الاسم ولم أكن أعرفه. عدت على الفور إلى ملاحظاتي وإلى الأوراق المكتوبة بخط اليد التي جمعناها بشأن هذا الإرث واستنتجت في دهشة أن مدينة "**دويه**" قد غابت عن ملاحظتنا.

عندئذ أصبحت شبه متأكد من أنني توصلت للهدف.

استقللت . قطار "**بريتون**"، رأيتك عند الخروج من المجلس ، عندئذ ثبت إيماني ، أنت صورة حية من عم والدك "**لانجيفول**"، كما هو ماثل في صورة فوتوغرافية لدينا وفقا لصورة زيتية للرسام الهندي "**سارانوني**".

سحب السيد "**شارب**" من مفكرته صورة فوتوغرافية ومررها على "**سارازان**" . هذه الصورة تظهر رجلا طويل القامة له لحية رائعة يرتدي عمامة بيضاء وثوبا من ديباج منقوش بالأخضر، هذه الهيئة الخاصة للصور التاريخية لجنرال يعطي أمر الهجوم ناظرا في اهتمام إلى المشاهد . على الصعيد الآخر، يميز بشكل طفيف دخان معركة وأدوات فروسية.

استطرد السيد "**شارب**" :

" هذه الأشياء تفسر لك أكثر مما تفسر لي . سأتركها لك وسأعود بعد ساعتين، إذا سمحت لي أن أتلقى أوامرك" .

تحدث السيد "**شارب**" وهو يسحب من حقيبته الجلدية سبعة أو ثمانية ملفات ،

البعض مطبوع ، والآخر مكتوب بخط اليد وضعها على الطاولة وخرج متقهقرا هامسا :

" سيد "**برياه جواهير موثوراناثا**"، لي شرف تحيتك" . نصف مصدق ونصف متشكك، أخذ الدكتور الملفات وبدأ يتصفحها فحصا سريعا كافيا ليثبت أن القصة صحيحة تماما، وبددت كل شكوكه كيف؟ مثلا في ظل وجود وثيقة مطبوعة تحت هذا العنوان .

"تقرير لأصحاب الشرف لوردات مجلس الملكة الخاص، وضع في الخامس من يناير(كانون الثاني) ١٨٧٠ الخاص بالتركة الشاغرة للبيجوم "**جوكول راجينهرا**" مقاطعة البنجال .

"نقاط المسألة– الأمر يتعلق بحق ملكية بعض العقارات وثلاثة وأربعين ألف فدان أرض زراعية، مجموعة من البنايات المختلفة ، قصور،منشآت استثمارية، قرى ، كنوز، أسلحة.، إلخ.. تشكل تركة البيجوم"**جوكول**" من "**راجينهرا**" . بيانات قدمت تباعا لمحكمة "**أجرا**" المدنية ولمحكمة "**دلهي**" العليا، في سنة ١٨١٩ تزوجت البيجوم **جوكول**"، أرملة "**الراجا لوكميسور**" وريثة ممتلكاته الضخمة، بأجنبي، من أصل فرنسي يُدعى "**چون چاك لانجيڤول**" . هذا الأجنبي بعد أن خدم حتى سنة ١٨١٥ في الجيش الفرنسي حيث شغل رتبة ضابط صف أبحر من "**نانت**" عند تسريح جيش "**لوار**" حيث عمل كوكيل شحن على إحدى السفن التجارية .

مضى نحو الداخل وحصل بعد قليل على وظيفة مدرب عسكري في الجيش الأهلي الذي كان "**الراجا لوكميسور**"مسؤولا عنه . من هذه الرتبة لم يتأخر في أن ارتقى إلى قائد عام ، وبعد وقت قصير من وفاة "**الراچا**" تزوج أرملته . أدت اعتبارات سياسية استعمارية مختلفة، وخدمات مهمة قدمها "**چون چاك لانجيڤول**"في أوقات خطيرة للأوربيين في "**أجرا**" أدى كل ذلك إلى تجنيس "**چون چاك لانچيڤول**" بالجنسية الإنجليزية، وقاد ذلك أيضا للحاكم العام لمقاطعة "**البنجال**" أن يطلب ويحصل لزوج "**البيجوم**"على لقب "**بارون**" . قسمت إذن أرض "**برياه چواهير موثورناث**" إلى

إقطاعيات . ماتت "**البيجوم**" سنة ١٨٣٩ تاركة حق الانتفاع بتركتها إلى "**لانجيڤول**" الذي لحق بها إلى الدار الآخرة بعد عامين . لم يثمر زواجهما إلا عن ابن به عته منذ سنواته الأولى وكان يلزم وضعه تحت الوصاية وأديرت ممتلكاته بأمانة حتى وفاته سنة ١٨٦٩ لم يكن هناك قط أي ورثة معروفين لهذه التركة العريضة

حكمت محكمة "**أجرا**" ومحكمة "**دلهي**" بمزايدة الإرث الشائع لتعذر قسمته ، بناء على طلب الحكومة المحلية المتصرفة باسم الدولة، لنا شرف طلب التصديق على هذه الأحكام ، إلخ" . . وتبع ذلك التوقيعات.

صور أحكام "**أجرا**" و"**دلهي**" مصدق عليها، مستندات بيع،أذون لإيداع رأس المال في بنك "**إنجلترا**"، أبحاث تاريخية أجريت في "**فرنسا**" للعثور على ورثة لـ"**لانچيڤول**"، ومجموعة كبيرة من الوثائق لنفس الغرض ، كل ذلك لم يعد يسمح بأقل شك لدى دكتور "**سارازان**" أنه بالتأكيد سليل هذه العائلة ووريث "**البيجوم**" لم يكن هناك بينه وبين الخمسمائة والسبعة والعشرين مليونا الموضوعة في كهوف البنك أكثر من حكم شكلي على المستندات الأصلية للميلاد والوفاة.

مثل ضربة الحظ هذه من شأنها أن تبهر أي فكر مهما بلغ هدوؤه. لم يستطع الدكتور الطيب أن يهرب كلّية من هذا الشعور وعلى الرغم من ذلك لم يستمر هذا الشعور طويلا، لم يترجم إلا بنزهة لبضع دقائق عبر الحجرة . ثم استعاد سيطرته على نفسه، واعتبر الحمى العابرة التي اعترته ضعفا وارتمى في مقعده وبقي بعض الوقت مستغرقا في أفكار عميقة .

ثم، فجأة ، أخذ يذهب ويجيء . ولكن في هذه المرة، لمعت عيناه لمعة صافية ووضح فيها فكرة كريمة ونبيلة تتبلور في نفسه، استقبلها، وربت عليها ، ودلّلَها وتبنّاها.

في هذه اللحظة دق الباب، عاد السيد "**شارب**" .

قال الدكتور في ودّ:

– أرجو المعذرة على شكوكي. هأنا قد اقتنعت ومدين لك ألف مرة على المشقة التي تكبدتها.

أجاب السيد "**شارب**" :

– أنت غير مدين على الإطلاق.. عمل بسيط .. إنها مهنتي.. هل لي أن أتمنى أن يبقى السيد "**برياه**" عميلا لي؟

– هذا يسرني بدون كلام. إني أضع كل الأمر بين يديك.. سأطلب منك فقط أن تكفَّ عن مناداتي بهذا اللقب السخيف.

سخيف هذا اللقب الذي يساوي واحدا وعشرين مليون جنيه استرليني! هكذا كشفت هيئة السيد "**شـــارب**" ، ولكنه رجل شديد الكياسة حتى أنه لايكف عن استخدام هذا اللقب .

أجاب :

" كما تشاء، أنت السيد. سأستقل قطار "**لندن**" وسأنتظر أوامرك.

سأل الدكتور:

– هل أستطيع الاحتفاظ بهذه المستندات؟

– بالتأكيد ، لدينا نسخة منها .

بقي الدكتور "**ســارازان**" بمفرده ، جلس إلى مكتبه ، أخذ ورقة لكتابة الخطابات وكتب الآتي.

"**بريتون**"، ٢٨ أكتوبر (تشرين الأول). ١٨٧١ .

" طفلي العزيز، وصلت إلينا ثروة .. كبيرة جدا، ضخمة ، غير معقولة! لا تعتقد أنني أصبت بلوثة عقلية واقرأ الورقتين أو الورقات الثلاث المطبوعة التي أرفقتها بخطابي. سترى فيها بوضوح أنني الوريث للقب بارون إنجليزي أو بالأحرى هندي، ولرأس مال يتعدَّى نصف مليار فرنك. مودعة حاليا في بنك "**إنجلترا**" . أنا لاأشك ياعزيزي "**أوكتاف**" في المشاعر التي ستتلقى بها هذا الخبر مثلي ، ستفهم الواجبات الجديدة التي ستفرضها علينا هذه الثروة، والأخطار التي تستطيع أن تعرضها لحكمتنا. منذ أن عرفت الأمر تقريبا والقلق بشأن مثل هذه المسؤولية يخنق نصف الفرحة. ربما يكون هذا التغيير قدريا في مصيرنا.. نحن متواضعون كرواد للعلم ، كنا سعيدين في

ظلمتنا هل سنستمر في سعادتنا ؟ ربما،و أقل سعادة.. لكنني لا أجرؤ أن أحدثك عن فكرة في رأسي .. حتى تصبح هذه الثروة بين أيدينا . أداة علمية جديدة قادرة ، أداة حضارية قيمة!

.. سوف نتحدث في ذلك . اكتب لي، قل لي بسرعة ما الانطباع الذي سببه لك هذا الخبر الكبير؟ وتولَّ تبليغ والدتك ، أنا متأكد من أنها ستتلقى الخبر بهدوء بما أنها امرأة عاقلة، أما بالنسبة لأختك فهي مازالت صغيرة حتى لايفقدها هذا الخبر رأسها من ناحية أخرى فإن رأسها الصغير قوي يستطيع أن يفهم النتائج المحتملة للخبر الذي أبلغك إياه، أنا متأكد أن هذا التغير الذي طرأ على وضعنا سيسبب لنا جميعا بعض الاضطراب. قدم المساعدة لـ"**مارسيل**" . إنه ليس غائبا عن أي من مشروعاتي المستقبلية .

والدك المحب

"**فرنسوا سارازان**"

وطبع هذا الخطاب على الأوراق مع الأوامر الأكثر أهمية في ظرف يحمل عنوان السيد "**أوكتاف سارازان**" .طالب في المدرسة المركزية للفنون والصناعات ، ٣٢ شارع "**روا دو سيسل- باريس**" .

أخذ الدكتور قبعته وارتدى معطفه وذهب إلى المجلس . بعد ربع ساعة، لم يعد الرجل الممتاز يفكر في ملايينه.

الفصل الثاني

صديقان

لم يكن "**أوكتاف سارازان**" ابن الدكتور ، ما يمكن أن نسميه كسولا بمعنى الكلمة . لم يكن أحمق ولا بالغ الذكاء، لا جميلا ولا قبيحا ، لا كبيرا ولا صغيرا ، لا أسمر ولا أشقر، بني الشعر في مجمله رجل من الطبقة الوسطى في الكلية كان يحصل بوجه عام على الجائزة الثانية وشهادتين أو ثلاث شهادات جدارة. في شهادة البكالوريا حصل على تقدير "مقبول" . دفع للمرة الأولى إلى مسابقة المدرسة المركزية وقبل في الامتحان الثاني بـ١٢٧ درجة . كان ذا طبيعة مترددة وواحدا من تلك العقليات التي تكتفي بالتأكد غير الكامل ، التي تعيش دائما في أقرب ما يمكن أن يكون وتمر خلال الحياة كضوء القمر . هذا النوع من الناس يكون بين يدي الأقدار مثل سدادة من الفلين تعتلي موجة . حسبما يهبّ الريح من الشمال أو من الوسط ، فهم يحملون نحو خط الاستواء أو نحو القطب. الصدفة تحدد وظيفتهم . ما لم يصب الدكتور "**سارازان**" بعض الأوهام عن طبيعة شخصية ابنه ربما كان سيتردد قبل أن يكتب له الخطاب الذي قرأناه ، ولكن قد يسمح بعدم التبصر الأبوي لأفضل العقليات .

لحسن الحظ أن في بداية دراسته وقع "**أوكتاف** " تحت سيطرة طبيعة حيوية حيث كان تأثيرها الطاغي – ولكنه محبب– له بالغ القوة عليه في مدرسة "**شارلمان**" حيث أرسله أبوه ليكمل دراسته ، ارتبط "**أوكتاف**" بصداقة حميمة مع أحد زملائه: ألزاسي (من الألزاس) ، "**مارسيل بروكمان**"، أصغر منه بسنة ولكنه تفوق عليه جسمانيا وفكريا وروحيا.

أصبح "**مارسيل بروكمان**" يتيما في سن الثانية عشرة ، وورث دخلا بسيطا يكفي بالكاد نفقات كليته.

لولا "**أوكتاف**"، الذي كان يصطحبه في الإجازات إلى منزل عائلته لما وطئت قدماه

أبدا خارج أسوار المدرسة.

ومن هنا أصبحت عائلة الدكتور "**سارازان**" عائلة الشاب الألزاسي. بطبيعته الحساسة تحت مظهره البارد وقد أدرك أن حياته بأسرها يجب أن تنتمي إلى هؤلاء الأناس الشجعان الذين حلوا مكان أبيه وأمه . لقد عشق إذن بشكل طبيعي الدكتور "**سارازان**"، وزوجته ، واللطيفة والجادة ابنتهما التي فتحت له قلبها . لكن بالأفعال وليس بالكلام أثبت لهم عرفانه. في الحقيقة، لقد أعطى نفسه المهمة اللطيفة بأن يجعل من "**چان**" التي كانت تحب الدراسة ، فتاة ذات تفكير مستقيم وفكر ثابت وصائب وفي نفس الوقت جعل من "**أوكتاف**" ابنا جديرا بوالده. هذه المهمة الأخيرة ، يجب القول بأن الشاب قد جعلها أقل سهولة من أخته الأكبر سنا من أخيها . لكن وعد "**مارسيل**" نفسه أن يصل إلى الهدفين.

لقد كان "**مارسيل بروكلين**" واحدا من هؤلاء الأبطال الشجعان الذين اعتادت "الألزاس" على إرسالهم كل الأعوام ليحاربوا في المعركة الباريسية الكبرى .كان طفلا يتميز بصلابة ومرونة عضلاته وكذلك بحيوية ذكائه . كان داخليًا مفعما بالإرادة والشجاعة كما كان مظهره الخارجي مستقيما ، منذ التحاقه بالكلية، عذّبه احتياج ملحّ للتميّز في كل شيء، التميز في الحواجز كما في الرصاص، في صالات الألعاب كما في معمل الكيمياء. أن يفقد جائزة في حصاده السنوي كان يعتبر أنه عام ضائع . في سن العشرين كان له جسد كبير مستقيم وقوي، مفعم بالحياة والحركة، آلة لها أقصى قدرة على تحمل الضغط والعطاء. كان رأسه الذكي مما يستوقف نظر العقليات المنتبهة. دخل الثاني في المدرسة المركزية في نفس العام مع "**أوكتاف**" وقرر أن يتخرج فيها الأول.

ومن ناحية أخرى يرجع قبول "**أوكتاف**" إلى طاقته المثابرة والمتزايدة التي يملكهما رجلان . خلال عام، دفعه "**مارسيل**"إلى العمل ، إلى معركة كبرى بهدف النجاح. كان يشعر تجاه هذه الطبيعة الضعيفة بشفقة، شعور مماثل لذلك الذي يشعر به الأسد تجاه كلب صغير . كان يسعده أن يقوي من طاقته الزائدة، هذه النبتة الضعيفة وأن يجعلها تثمر بالقرب منه .

جاءت حرب ١٨٧٠ لتفاجئ الصديقين حيث كانا يمضيان امتحاناتهما منذ اليوم التالي لإنهاء الامتحانات ذهب "**مارسيل**" مفعما بألم وطني لما يهدد "**ستراسبورج**" والألزاس ليلتحق بالكتيبة الواحدة والثلاثين للمشاة ، على الفور تبع "**أوكتاف**" هذا المثل.

جنبا إلى جنب اشترك الاثنان في حملة المقر القاسية في "**باريس**" .

أصيب "**مارسيل**" برصاصة في ذراعه اليمنى في "**شامبيني**" ؛ في "**بوزينفال**"نال شارة تميز لذراعه اليسرى، لم ينل "**أوكتاف**" لاشارة تميز ولا جرحا . للحق لم تكن غلطته؛ لأنه تبع دائما صديقه تحت النار. كان بعيدا عنه بالكاد ستة أمتار. لكن كانت هذه الأمتار الستة هي كل شيء .

منذ حلول السلام ورجوع الأعمال الطبيعية ، سكن الطالبان غرفتين متجاورتين في فندق متواضع بالقرب من المدرسة ، أحزان "**فرنسا** " وانفصال الألزاس عن "اللوران"طبع على طبيعة "**مارسيل**" أمومة لكنها تتسم بالرجولة.

كان يقول " هذا عمل الشباب الفرنسي، وتصحيح أخطاء الآباء وبالعمل فقط يستطيعون الوصول إلى ذلك" .

كان يقوم في الخامسة ويلزم "**أوكتاف**" بتقليده ،يصحبه إلى المحاضرات وفي الخروج لايتركه خطوة واحدة ، يعودان ليستسلما للعمل ويقطعاه من وقت لآخر لاحتساء الشاي . كانا ينامان في العاشرة، القلب راض ما لم يكن سعيدا ، والعقل ممتلئ، مباراة بلياردو من وقت لآخر ، عرض مختار جيد ، حفل "**كونسر ڤاتوار**" من وقت بعيد لآخر، سباق خيل حتى غابات "**ڤاريار**" ، نزهة في الغابة مرتين في الأسبوع ، مباراة ملاكمة أو مبارزة ، كان هذا هو ترفيههما . كان "**أوكتاف**" يظهر أحيانا نوبات تمرد ويلقي بنظرة إلى وسائل ترفيهية أخرى، كان يتحدث عن الذهاب لرؤية "**أريستيد لارو**" في مشرب جعة "سان ميشال" .

ولكن كان "**مارسيل**" يسخر بقسوة من هذه النزوات التي كانت تتراجع في أغلب

الأحيان.

في التاسع والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٧١، حوالي الساعة السابعة مساء، كان الصديقان، وفقا لعادتهما، يجلسان جنبا إلى جنب إلى نفس الطاولة تحت ضوء مصباح مشترك. كان "**مارسيل**" منغمسا قلبا وقالبا في إحدى المسائل في الهندسة الوصفية المتعلقة بضرب الأحجار و"**أوكتاف**" يجري بعناية بالغة صنع القهوة، هذا للأسف أهم بالنسبة لقدرته. كان هذا واحدا من الأشياء النادرة التي يتميز فيها– ربما لأنه يجد في ذلك فرصة يومية للهرب بضع دقائق من ضرورة حل المعادلات. كان يمرر الماء المغلي نقطة نقطة خلال طبقة كثيفة من القهوة وهذه السعادة الهادئة كانت تكفيه. ولكن تركيز "**مارسيل**" كان يثقله، وكان يشعر برغبة قوية في إزعاجه بالحديث.

قال فجأة" من الأفضل أن تشتري مرشحا، هذا الفلتر لم يعد على مستوى المدنية.

أجاب "**مارسيل**"

– أشتري مرشحا! ربما سيمنعك هذا من إضاعة ساعة كل مساء في هذا المطبخ.

ثم عاد إلى مسألته.

– قَبْو له سطح سفلي بثلاثة محاور غير متساوية، ليكن أ.ب.ح.د القطع الناقص الذي يحتوي على المحور الأقصى ن أ=أ، والمحور الأوسط ن ب =ب بينما المحور الأدنى (ن،ن،ج) أفقي ويساوي ن مما يجعل القبو شديد الانخفاض.

في هذه اللحظة دق الباب.

قال خادم الفندق خطاب للسيد "**أوكتاف سارازان**".

هذه التسرية السعيدة أحسن استقبالها الطالب الشاب. قال "**أوكتاف**": " إنها من والدي. أعرف خطَّه.

أضاف وهو يزن الخطاب بيده. هذا ما يمكن أن نسميه رسالة، على الأقل".

كان "**مارسيل**" يعرف مثله أن الدكتور في "**إنجلترا**". لقد تميّز مروره في "**باريس**" منذ ثمانية أيام بعشاء في "**ساردانابال**" أهداه للصديقين في مطعم "**باليه رويال**" الذي

كان مشهورا في القديم ، ولكنه الآن غير ذلك ، ولكن كان الدكتور "**سارازان**" مازال يعتبره آخر كلمة للرفاهية الباريسية.

قال "**مارسيل**" :

" ستخبرني إذا كان والدك يتحدث عن مؤتمر الصحة ، إنها فكرة جيدة أن يذهب إلى هناك. يميل العلماء الفرنسيون إلى العزلة."

عاد "**مارسيل**" إلى مسالته.

" ... السطح الخارجي سيُشكل من جسم ناقص شبيه بالأول مركزه تحت ن ، على الأفقي ن بعد تحديد المراكز ف١ ؛ ف٢ ف٣ للقطع الناقصة الثلاث الرئيسية، نرسم القطع الناقص والقطع الزائد المساعدين . حيث المحاور المشتركة..."

صرخة "**أوكتاف**" جعلته يرفع رأسه.

ساله في قلق لرؤية صديقه شاحبا:

" ماذا هنالك إذن" ؟

قال الآخر دهشا للخبر الذي قرأه توا.

– اقرأ!

أخذ "**مارسيل**" الخطاب ، قرأه حتى النهاية ، أعاد قراءته مرة ثانية، ألقى نظرة إلى الوثائق المطبوعة المرفقة وقال :

– هذا مثير للفضول!

ثم أخذ غليونه وأشعله بطريقة تقليدية.

كان "**أوكتاف**" معلقا بشفتيه.

صاح فيه بصوت مرتعش.

" هل تعتقد أن ذلك حقيقي؟

– حقيقي؟.. بكل وضوح والدك لديه رجاحة العقل والفكر العلمي حتى لايقبل هذا الأمر بدون تفكير. ومن ناحية أخرى البراهين ها هنا، والأمر بسيط جدا .

اشتعل الغليون جيدا ، عاد "**مارسيل**" إلى العمل بقي "**أوكتاف**" مكتوف اليدين

غير قادر حتى على إتمام عمل القهوة، لايستطيع جمع فكرتين منطقيتين . على الرغم من ذلك كان بحاجة إلى أن يتحدث ليتأكد من أنه لايحلم.

" لكن.. لو كان صحيحا ، فهذا مؤثر للغاية!.. هل تعرف أن نصف مليار ، ثروة طائلة؟

رفع "**مارسيل**" رأسه وقال:

- طائلة هذه هي الكلمة ربما لايوجد مثلها في "**فرنسا**" ويعد بعض منها في "**الولايات المتحدة**" وبالكاد خمس أو ست في "**إنجلترا**" في المجمل خمس عشرة أو عشرون في العالم.

استطرد "**أوكتاف**" :

- بالإضافة إلى اللقب . لقب بارون! لم أعلم قط بالحصول على ذلك ولكن بما أنه قد حدث ، يمكن القول بأن ذلك أفضل من اسم "**سارازان**" بدون ألقاب.

أطلق "**مارسيل**" نفحة دخان ولم ينطق بكلمة. قالت نفحة الدخان هذه وبوضوح : " تبا!.. تبا!

استطرد "**أوكتاف**" :

- بالتأكيد لم أكن أريد أن أفعل مثلما يفعل الكثير من الناس الذين يلصقون بأسمائهم لقبا أو يخترعون لقبا وهميا!لكن أن تملك لقبا حقيقيا ، صحيحا ، مدونا في الكتاب الذي يشتمل على أسماء النبلاء في "**بريطانيا العظمى**" و"**أيرلندا**"، بدون شك أو ارتياب محتمل كما يرى في كثير من الأحيان.

استمر الغليون:" تبا ! تبا!

استطرد "**أوكتاف**" باقتناع:

- عزيزي ، لقد أصبت القول والفعل ." الدم شيء مهم" كما يقول الإنجليز!

توقف قليلا أمام نظرة "**مارسيل**" الضاحكة وعاد إلى الملايين .

استطرد:

- هل تتذكر أن "**بينوم**" مدرس الرياضيات الذي قال في درسه الأول عن العد ، أن

نصف مليار عدد كبير على أن تستطيع قوى الذكاء الإنساني فقط أن تكون عنه فكرة صحيحة، ما لم يكن لديها رسم بياني ؟.. لو أن رجلا دفع فرنكا في الدقيقة ، للزمه أكثر من ألف سنة حتى يدفع هذا المبلغ ! آه! حقا! .. أمر عجيب؛ أن أخبر نفسي بأني وريث نصف مليار فرنك.

صاح "**مارسيل**" قد صعقته الكلمة.

– نصف مليار فرنك . هل تعرف أفضل ما تستطيع فعله بها ؟

إعطاؤها لـ"**فرنسا**"لتدفع دينها!

صاح "**أوكتاف**" مذعورا:

– لاتهدف إلى اقتراح مثل هذه الفكرة على والدي إنه جدير بتبنيها! أرى بالفعل أنه يفكر في مشروع على طريقته. لنفكر في الدولة ولكن لنحتفظ على الأقل بالمبلغ !

قال "**مارسيل**" :

– هيا لقد خلقت دون أن تشك في ذلك حتى الآن لتكون رأسماليا. شيء ما يحدثني يا عزيزي "**أوكتاف**" أنه من الأفضل لك . ما لم يكن لوالدك الذي يمتاز بفكر مستقيم وراجح، أن يتحول هذا الإرث إلى نسب أكثر بساطة . أفضل أن أراك أنت وأختك تقسمان خمسة وعشرين ألف جنيه بدلا من جبل الذهب هذا !

واستأنف العمل

أما "**أوكتاف**" ، كان مستحيلا ألا يفعل شيئا ، أخذ يتحرك كثيرا في غرفته حتى إن صديقه الذي نفد صبره قليلا انتهى بأن قال له :

– من الأفضل أن تذهب لتستنشق الهواء، من الواضح، أنك لاتصلح لشيء هذا المساء!

أجاب "**أوكتاف**" وقد تملكه السرور يشبه التصريح بترك العمل .

قفز إلى قبعته ، جرى على درجات السلم ووجد نفسه في الشارع خطا بالكاد عشر خطوات ووقف تحت مصباح غاز وأعاد قراءة خطاب والده . كان يحتاج إلى أن يتأكد من جديد أنه متيقظ.

ردد :

– نصف مليار ! . . . نصف مليار ! . .

هذا يقدم على الأقل دخل خمسة وعشرين مليونا ! . . عندما يعطيني والدي . واحدا في السنة، كمرتب ، أو النصف ، أو الربع ، ساكون دائما سعيدا. يفعل المرء الكثير بالمال إني متأكد أنني سأحسن استخدامه! لست غبيا! أليس كذلك؟ لقد قبلت في المدرسة المركزيةولي لقب أيضا! . . سأعرف أن أحمله!

نظر إلى نفسه عابرا زجاج أحد المتاجر.

"سيكون لدي فندق ، جياد . . سيكون لـ"**مارسيل**" واحد في الوقت الذي سأكون فيه ثريا . من الواضح أن الأمر سيكون كما كان .

نصف مليار! . . لقب بارون! هذا أمر غريب وقد حدث. يبدو أن ذلك كان ينتظرني . شيء ما كان يحدثني بأنني لن أظل دائما منكبا على الكتب ولوحات الرسم! . . على الأقل إنه حلم مشهور!

تابع "**أوكتاف**" ، وهو يقلب أفكاره، أشجار شارع "**ريڤولي**" . ووصل إلى "**الشانزليزيه**" ، ولف مع منعطف شارع"**رويال**" ووصل إلى الشارع الكبير. في الماضي لم يكن ينظر إلى البضائع المعروضة الرائعة إلا غير مبال كشيء تافه ولا مكان له في حياته، والآن توقف عندها وفكر بسعادة بالغة أن كل هذه الكنوز ستؤول إليه . عندما يريد .

قال :

– إنه من أجلي أنا تدور طواحين "**هولندا**" ، ومصانع "**ايليف**" تنسج ملاءاتها الأكثر نعومة ، صناع الساعات يصنعون الساعات، سراج الأوبرا يتدفق من شلالات النور، القيثارات تعزف ، المغنيات تغني بأعلى صوتها! من أجلي أنا تساق الجياد الأصيلة إلى مضمار ترويض الخيول ، وتضاء المقهى الإنجليزي ! "**باريس**"لي! . . كل شيء لي .

ألن أسافر؟ ألن أذهب أبدا لزيارة ممتلكاتي في "**الهند**" ؟ . . أستطيع بعد بضعة أيام أن أمنح نفسي باغودة(عملة "**الهند**" الذهبية) ، والتماثيل العاجية الصغيرة! . .

سيكون لديّ أفيال!.. سأصطاد النمر!..

والأسلحة الجميلة!.. والقوارب الجميلة! . قارب؟ لا ! ولكن ياخت بخاري ليقودني إلى حيث أريد، أتوقف وأرحل على سجيتي !

بمناسبة البخار، إني مكلف بإبلاغ والدتي الخبر. إذا رحلت إلى "**دويه**"!.. هناك مدرسة.. أوه ! أوه! المدرسة! من الممكن تفويتها!.. لكن "**مارسيل**" يجب أن أخبره سأرسل له استعجالا. سيدرك جيدا أنني متعجل لأرى والدتي وأختي في مثل هذه الظروف!"

دخل "**أوكتاف**" مكتب تلغراف وأبلغ صديقه أنه قد رحل وسيعود خلال يومين، ثم استقل عربة نقلته إلى محطة الشمال بمجرد أن كان بالقطار، استأنف حلمه.

في الساعة الثانية صباحا ، دق "**أوكتاف**" باب منزل والديه في صخب وأزعج حي "**أوبات**" الهادئ.

سألت السيدات من نافذة إلى أخرى:

– من إذن " مريض؟

صاحت الخادمة العجوز من نافذتها في الطابق الأخير :

– الدكتور ليس بالمدينة.

– إنه أنا "**أوكتاف**" انزلي لتفتحي لي يا "**فرانسين**" .

بعد عشر دقائق من الانتظار نجح "**أوكتاف**" في دخول المنزل أسرعت أمه وأخته "جان" بالنزول بملابس النوم منتظرتين تفسيرا لهذه الزيارة. خطاب الدكتور الذي قرأه بصوت عال أعطى مفتاح اللغز.

بقيت السيدة "**سارازان**" دهشة بعض الوقت، احتضنت ابنها وابنتها وبكت من الفرحة. بدا لها أن العالم سيكون لهم الآن، وأن الحزن لن يجرؤ أبدا على مهاجمة شباب يمتلكون مئات الملايين. وعلى الرغم من ذلك ، لقد خُلقت النساء ليتعودن أكثر من الرجال على مفاجآت القدر الكبرى. أعادت السيدة "**سارازان**" قراءة خطاب زوجها، قالت لنفسها إنه يرجع له في مجمل الأمر، تقرير مصيرها هي وأطفالهما، ودخل الهدوء

قلبها أما "**چان**"، فكانت سعيدة بسعادة أمها وأخيها ، ولكن خيالها ذا الثلاث عشرة سنة لم يكن يحلم بسعادة أكبر من هذا المنزل المتواضع حيث تمضي حياتها في هدوء بين دروس أساتذتها وحنو والديها ، لم تكن تظن أن بعض الأوراق المالية تستطيع أن تغير حياتها، هذا التصور لم يهزها لحظة واحدة.

السيدة "**سارازان**" تزوجت صغيرة رجلا منغمسا كلية في اهتماماته العلمية، احترمت شغف زوجها الذي أحبته بحنان دون أن تفهم ذلك.

غير قادرة على المشاركة في السعادة التي تمنحها الدراسة للدكتور "**سارازان**"كانت تشعر في بعض الأحيان أنها وحيدة بجانب هذا الرجل المحب للعمل. وبعد ذلك ركزت على طفليها كل آمالها . حلمت دائما لهما بمستقبل باهر، متخيلة أنهما سيصبحان أكثر سعادة. "**أوكتاڤ**"، لم تكن تشك في أنه سيكون له مستقبل كبير. منذ أن التحق بالمدرسة المركزية ، هذه الأكاديمية البسيطة والمفيدة للمهندسين الشباب تحولت في خيالها إلى منجم الرجال العظماء ، قلقها الوحيد كان بساطة ثروتهم التي قد تكون عائقا ، أو صعوبة أمام مهنة ابنها العظيمة. أو تعوق آجلا في تنشئة ابنتها. الآن، ما فهمته من خطاب زوجها أن مخاوفها ليس لها داع. وبذلك اكتملت فرحتها . أمضت الأم والابن جزءا كبيرا من الليل يتحدثان ويفكران في مشروعات، بينما استسلمت "**چان**" للنوم في مقعدها ، سعيدة جداً بالحاضر غير مبالية بالمستقبل.

على الرغم من ذلك، في اللحظة التي ذهبا ليأخذا فيها قسطا من الراحة:

قالت السيدة "**سارازان**" لابنها:

- أنت لم تحدثني عن "**مارسيل**"الم تخبره بخطاب والدك، وماذا قال عنه ؟

أجاب "**أوكتاڤ**" :

- أوه ! أنت تعرفين "**مارسيل**" ! إنه أكثر من عاقل ، إنه متشكك! أعتقد أنه يخشى علينا من ضخامة الإرث! أقول علينا لكن لم يشمل قلقه والدي، لأنه كما قال رجاحة عقله وفكره العلمي يؤمنانه لكن يا إلهي! بالنسبة لك ،و"**چان**" أيضا وأنا على الأخص، لم يخف عني أنه كان يفضل إرثا متواضعا خمسة وعشرين ألف جنيه..

أجابت السيدة"**سارازان**" ناظرة إلى ابنها .

– ربما لم يكن "**مارسيل**" مخطئا.. قد يصبح ذلك خطرا كبيرا. ثروة مفاجئة لبعض الطبائع!

استيقظت "**چان**" . سمعت كلمات أمها الأخيرة قالت وهي تفرك عينيها وتتجه نحو حجرتها الصغيرة.

– تعرفين يا أمي . تعرفين ما قلته لي ذات يوم، أن "**مارسيل**" محق دائما! أنا أصدق كل ما يقول صديقنا "**مارسيل**"!

وقبلت أمها ومضت.

الفصل الثالث

عمل مختلف

عندما وصل إلى الجلسة الرابعة من مؤتمر الصحة، استطاع الدكتور "**ســـــارازان**" ملاحظة أن كل زملائه يستقبلونه بعلامات احترام غير معقول . إلى هذا الحد، كان النبيل اللورد "**جلا ندوڤير**"، الفارس الرئيس الاسمي لهذا المؤتمر، يتكرم ويلاحظ بالكاد وجود هذا الطبيب الفرنسي.

كان هذا اللورد شخصية مهيبة حيث همش دوره في أن يعلن افتتاح الجلسة أو انتهاءها، وأن يعطي الكلمة بشكل أوتوماتيكي للمتحدثين المدونين أمامه في قائمة. كان يحتفظ بشكل معتاد بيده اليمنى في فتحة بدلة (**الردانجــوت**) المزررة ليس لأنه سقط من فوق الحصان – لكن فقط لأن هذه الهيئة قد أعطاها النحاتون الإنجليز في تماثيلهم البرنزية للعديد من رجال الدولة وجها شاحبا أجرد به بقع حمراء، يضع شعرا مستعارا مرفوعا في خصلة عالية على جبينه، مما يكمل هيئته الأكثر كوميدية والأكثر عبوسا، يستطيع المرء أن يراها، كان اللورد "**جلاندوڤير**" يتحرك في الحجرة كأنها من خشب أو من ورق مقوى . عيناه تتحركان تحت حاجبيهما بشكل ميكانيكي على نفس طريقة الدُّمَى أو المانيكان.

أثناء العروض الأولى، أرسل رئيس مؤتمر الصحة للدكتور "**سارازان**" تحية حماية من الممكن تفسيرها على النحو التالي:

" صباح الخير ، السيد الوضيع!.. أنت الذي من أجل أن تكسب عيشك البسيط ، تفعل هذه الأعمال الصغيرة على آلات صغيرة ؟.. يجب أن يكون لدي نظرة طيبة حتى ألاحظ مخلوقا بعيدا عني في تركيب الكائنات!.. كن في ظل سيادتي، أسمح لك بذلك."

في هذه المرة ألقى إليه اللورد "**جلاندوڤير**" أكثر الابتسامات احتراما ودفعته الدماثة إلى أن يقدم له مقعدا خاليا على يمينه من ناحية أخرى ، كان كل أعضاء المؤتمر قد

نهضوا واقفين.

دهش لهذا الاهتمام المبالغ فيه ، قائلا لنفسه ربما بعد تفكير قد بدا جهاز حساب كرات الدم لزملائه اكتشافا مهما، جلس الدكتور "**سارازان**" في المقعد الذي أتيح له .

ولكن تطايرت كل أوهامه كمخترع عندما مال اللورد "**جلاندوڤير**" نحو أذنه بالتواء لفقار عنقه مما قد ينتج عنه ألم كبير في عنق سيادته.

قال:

– لقد بلغني أنك رجل لك أملاك كثيرة؟ أخبروني أنك تساوي واحدا وعشرين مليون استرليني؟

بدا أن اللورد "**جلاندوڤير**" حزين لأنه عامل باستخفاف هذه القيمة الضخمة المتمثلة في الدكتور لحما ودما . كل هيئته تقول:

– لماذا لم تخبرنا؟.. صراحة هذا ليس جيدا أن تعرض الناس لسخرية مماثلة.

الدكتور "**سارازان**" الذي لايعتقد في ضميره أنه يساوي مليما أكثر عما في الجلسات السابقة ، سأل نفسه كيف انتشر هذا الخبر بسرعة. عندما قال له الدكتور "**أوڤيدوس**" من "**برلين**" جاره في المقعد الذي على يمينه بابتسامة مصطنعة وسطحية.

ها أنت قوي مثل آل "**روتشايلد**"! .. نشرت "**الديلي تلجراف**" الخبر. قرأته في الأخبار المنوعة:

" ميراث ضخم– التركة الخالية المشهودة للبيجوم "**جوكول**" وجدت أخيرا وريثها الشرعي بعناية السادة "**بيلوز**"، "**جرين**"، و"**شارب**" المحامين،٩٣ ، "**سوثامبتون**"– "**لندن**" المالك السعيد لواحد وعشرين مليون استرليني مودعة حاليا في بنك **إنجلترا**"، هو الطبيب الفرنسي، الدكتور"**سارازان**"، الذي تحدثنا عنه هنا منذ ثلاث سنوات بمناسبة مؤتمر "**بريجتون**" بعد مشقة ومن خلال أحداث تعتبر في حد ذاتها رواية استطاع السيد "**شارب**" أن يثبت دون أي شك محتمل أن الدكتور "**سارازان**" هو السليل الوحيد الحي لعائلة "**چون چاك لانچيڤول البارون**" الزوج الثاني للبيجوم

"**جوكول**" . هذا الجندي الذي ترجع أصوله إلى المدينة الفرنسية الصغيرة "**بارلو دوك**" .
لم يعد هناك ما ينقص ليتسلم ميراثه سوى بعض الإجراءات . الطلب موجود في المحكمة . إنها سلسلة أحداث مثيرة للفضول التي أغدقت على رأس عالم فرنسي بلقب بريطاني وكنوز مكدسة لنبلاء هنود. قد تكون الثروة أقل ذكاء ، يجب التهنئة بأن مبلغا كبيرا كهذا وقع بين يدي من يعرف حسن استخدامه.

بشعور فريد ، انزعج الدكتور "**سارازان**" بأن يصبح الخبر خبرا عاما، ليس قط بسبب المضايقات التي جعلته يتنبأ بها ، لكنه شعر بالإهانة للأهمية التي يولونها لهذا الحدث ، يبدو له أن الرقم الضخم لثروته قد قلل من شأنه شخصيا ، أعماله ، قيمته الشخصية – كان لديه شعور عميق – بأن كل ذلك يغرق في هذا المحيط من الذهب والفضة حتى في عيون زملائه لم يعودوا يرون فيه الباحث الذي لايكل ، الذكاء المرتفع ، المخترع النابغة ، إنهم يرون النصف مليار . هل أصبح سلعة ، أم واحدا من تلك النماذج الإنسانية التي تفقد قيمتها بدلا من أن يكون من الممثلين مرتفعي الشأن، إن قدره كما هو. لقد قال اللورد "**جلاندوفير**" الكلمة إنه "يساوي" واحدا وعشرين مليون استرليني لا أكثر ولا أقل.

هذه الفكرة تجعله يشعر بالاشمئزاز . والمؤتمر الذي ينظر بفضول إليَّ ، كيف أصبح " نصف ملياردير" ، أدرك دون دهشة أن هذا الشخص قد خيم عليه نوع من الحزن.

إنه ليس سوى ضعف عابر. عظم الهدف الذي قرر أن يكرس له هذه الثروة غير المتوقعة تراءى فجأة إلى تفكير الدكتور وأدخل عليه الاطمئنان. انتظر نهاية المحاضرة التي يلقيها الدكتور"**ستفنسون**" من "**جلاسجو**" عن تربية ذوي الإعاقة الذهنية الصغار. طلب الكلمة.

منحه اللورد "**جلاندوفير**" إياها مفضله على الدكتور "**أوفيدوس**" كان سيمنحه إياها لو اعترض المؤتمر كله، لو اعترض علماء أوروبا أجمعين على هذا الجميل ! هكذا اكتشفت نبرة صوت الرئيس الخاصة .

قال الدكتور "**سارازان**" :

– سادتي .كنت أنوي الانتظار بضعة أيام قبل أن أخبركم- بالثروة التي تحققت لي والنتائج السعيدة التي تستطيع أن تقدمها هذه المصادفة للعلم. لكن بما أن الحدث قد أصبح عاما ، ربما سيكون هناك خطأ ألا يوضع على الفور على الطريق الصحيح . .

نعم يا سادتي إنه مبلغ كبير، مبلغ به عدة ملايين مودعة حاليا في بنك "**إنجلترا**" ، عاد إليَّ شرعيا . هل أحتاج إلى أن أقول لكم إنني أعتبر نفسي في ظل هذه الظروف مستأمنا على العلم؟

(إحساس عميق) هذا المبلغ ليس ملكا لي ولكنه ملك للإنسانية للتقدم!

(حركات مختلفة. تعجب. تصفيق. نهض كل المجلس متأثرا بهذا التصريح) .

لاتصفقوا لي يا سادتي . أنا لاأعرف رجل علم واحدا،جديرا حقا بهذا الاسم ، لايفعل ما فعلت لو كان مكاني . من يعرف إذا كان البعض لن يفكروا أنه لايوجد – مثلما هو الحال في الكثير من أفعال البشر- مزيد من الكرامة أكثر من الوفاء (الإخلاص)؟

.. (لا !لا !) لايهم! لاننظر إلا للنتائج . أعلنها إذن، بشكل قطعي وبدون تحفظ : النصف مليار التي وضعتها الصدفة بين يديَّ ليست لي ، إنها للعلم! هل تريدون أن تكونوا المجلس الذي يقسم هذه الميزانية؟ ليس لدي في قدراتي الثقة الكاملة لأدعي أنني السيد الأوحد ، إني أجعلكم حكاما وأنتم أنفسكم ستقررون أفضل استخدام لهذه الثروة (هتاف. حركة كبيرة صخب عام) .

المجلس واقف . بعض الأعضاء ، في ظل تحمسهم صعدوا فوق الطاولة بدا الأستاذ "**تورنبول**" من "**جلاسجو**" مهددا بالسكتة وجد الدكتور "**سيجونيو**" صعوبة في التنفس، لورد "**جلاندوفير**" الوحيد الذي احتفظ بالهدوء والرصانة التي تليق برتبته. إنه مقتنع تماما أن الدكتور "**سارازان**" يمزح وليس لديه أدنى نية في تحقيق برنامج مبالغ فيه إلى هذا الحد.

استطرد المتحدث:

– اسمحوا لي، عندما يسود الهدوء ، اسمحوا لي أن أقترح خطة من السهل تنميتها

وتنفيذها ، أقترح الآتي .

هنا ، عاد المجلس لهدوئه، واستمع باهتمام بالغ .

سادتي ، بين أسباب المرض : البؤس والموت اللذان يحيطان بنا يجب أن نحسب واحدا له أهمية كبرى : إنها الظروف الصحية السيئة التي يعيش فيها أغلب الناس . إنهم يتكدسون في المدن، في مساكن في أغلب الوقت محرومة من الهواء والضوء . هذان العاملان الضروريان للحياة . هذه التجمعات السكنية البشرية تتحول أحيانا إلى بؤر حقيقية للأمراض . هؤلاء الذين لايلقون فيها الموت يصابون على الأقل في صحتهم، تقل قوتهم الإنتاجية، ويفقد المجتمع بذلك الكثير من العمل الذي يستطيع أن يعود بالكثير من النفع . لماذا يا سادتي لانحاول . . مثالا؟

لماذا لانجمع كل قوى التخيل لدينا لنرسم خطة مدينة نموذجيةعلى قواعد علمية صارمة؟ . . (نعم ! نعم! هذا صحيح!) لماذا لاتكرس على الفور المبلغ الذي لدينا لتشييد هذه المدينة وتقديمها للعالم كتعليم عملي . . " (نعم! نعم! – تصفيق حاد) .

اعترى أعضاء المجلس جنون معد، يتصافحون، يلقون بأنفسهم على الدكتور "**سارازان**" ، يرفعونه، يحملونه كالمنتصر حول القاعة .

استطرد الدكتور عندما عاد إلى مكانه .

– سادتي هذه المدينة التي يراها كل منا بعين خياله التي من الممكن أن تصبح خلال بضعة أشهر حقيقة، مدينة الصحة والعافية، سندعو كل الشعوب لزيارتها ، سننشر بكل اللغات الخطة والوصف . سندعو العائلات الشريفة التي طردها الفقر ونقص العمل . طردهم من البلاد المزدحمة تلك .

لاتندهشوا لأني فكرت فيها– هؤلاء الذين اضطرهم الغزو الأجنبي بقسوة للنفي ، سيجدون لدينا استخداما لنشاطهم وذكائهم، سنقدر هذه الذوات المعنوية ، الأكثر قيمة ألف مرة من مناجم الذهب والألماس سيكون لدينا هنا كليات واسعة حيث الشباب المربَّى وفقا لمبادئ حكيمة، نحن جديرون بتنمية وموازنة كل الإمكانات المعنوية، الجسمية ، والفكرية سنعد أجيالا قوية للمستقبل!

يجب العدول عن وصف الصخب المفعم بالحماس الذي تبع هذا الحديث .

التصفيق، الهتاف تتابع خلال ربع ساعة بمجرد أن استطاع الدكتور "**سارازان**" الجلوس، مال نحوه اللورد "**جلاندوڤير**" من جديد وهمس في أذنه وهو يغمز بعينه:

"مضاربة جيدة!... أنت تعتمد على العائد من هذه الهبة ، أليس كذلك ؟.. عمل مضمون ، إذا كان مطروحا جيدا وتديره أسماء مختارة!.. كل الذين في دور النقاهة ومعتلو الصحة سيريدون السكن هنا!.. آمل في أن تحجز لي قطعة أرض جيدة أليس كذلك؟

الدكتور المسكين ، جريح بأن يلصق بأعماله صفة الجشع ، همَّ هذه المرة بالرد على سيادته عندما سمع نائب الرئيس يلقي كلمة شكر لصاحب الفكرة الإنسانية التي طرحها على المجلس . قال :

–" سيكون شرفا أبديا لمؤتمر "**بريجتون**"أن فكرة راقية ولدت فيه لانحتاج لنحافظ عليها سوى أعلى مستوى من الذكاء مقرون بأكبر قلب وكرم لامثيل له.. والآن وقد اقترحت الفكرة لِمَ لاتنفذ! كم من المليارات تنفق في الحروب المجنونة؟ كم من رؤوس الأموال تبدد في المضاربات كان من الممكن استغلالها في مثل هذه المحاولة!

في نهاية كلمته طالب المتحدث ، للمدينة الجديدة، تشريفا حقيقيا لمؤسسها بأن يطلق عليها اسم "**سارازينا**" .

وجدت فكرته ترحيبا عندما عرضها للتصويت وعندما سأل الدكتور "**سارازان**" نفسه .

قال :

– لا ، لا علاقة لاسمي بذلك ولا داعي أيضا المدينة المستقبلية اسم من الأسماء بحجة أنه مشتق من اليونانية أو اللاتينية .

ستكون مدينة الصحة ، لكنني أطلب أن يكون اسمها على اسم وطني ،لنسميها "**مدينة – فرنسا**" .

لايستطيع أحد أن يرفض للدكتور هذه الرغبة التي من حقه . كانت "**مدينة – فرنسا**" .قد أسست فعلا بالكلام، وفي محضر الاجتماع الذي أغلق جلسته كانت

المدينة موجودة على الورق.

مضوا إذن على الفور إلى مناقشة المواد العامة للمشروع لكن من اللائق ترك المجلس في انشغاله ، الذي يعد مختلفا تماما عن اهتماماته العادية التي يختص بها مثل هذه المجالس، لمتابعة –خطوة بخطوة في واحدة من الصحف التي لاحصر لها– الثروة التي نشر عنها في الـ"**ديلي تلجراف**" .

منذ التاسع والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) مساء وإعادة كتابة هذا المقال الصغير في الصحف الإنجليزية، بدأ ينتشر في جميع مقاطعات المملكة المتحدة . نشر في "**جازت وهول وجان**" أعلى الصفحة الثانية في عدد من هذه الجريدة المتواضعة. وصلت الجريدة إلى "**روتردام**" في الأول من نوفمبر(تشرين الثاني).

على الفور قطعت بمقص رئيس التحرير والسكرتير الوحيد لـ"**إيكو نرولونديه**"وصل الخبر في ٢نوفمبر(تشرين الثاني) بسرعة البرق إلى "**ميموريال دي برام**" . هنا ، لبس الخبر ثوبا جديدا دون أن يتغير المضمون . وسرعان ما طبع باللغة الألمانية . كيف لم يخش الصحفي الألماني ألا يصدق قُراؤه الخبر عند قراءة عبارة: مراسل خاص في "**بريجتون**" ؟

مهما حدث لقد أصبح الخبر ألمانيّا ووصل إلى جريدة "**جازيت دي نور**" .التي خصصت له مكانا في العمود الثاني في الصفحة الثالثة، اكتفت بحذف العنوان.

بعد كل هذه التنقلات انتهى بأن وصل مساء الثالث من نوفمبر(تشرين الثاني) بين يدي خادم البروفيسور "**شولتز**" في جامعة "**أيينا**" . شخصية من علية القوم ، لايمثل من الوهلة الأولى أي شيء مثير للدهشة، رجل في الخامسة أو السادسة والأربعين ، قوي البنية، عريض المنكبين مما يشير إلى تنشئة قوية! أصلع ، شعره القليل أشقر عيناه زرقاوان ليس بهما أي لمعة وعلى الرغم من ذلك يشعران المرء بالقلق عندما ينظران إليه . كان فم البروفيسور "**شولتز**" كبيرا داخله صفان من الأسنان الرائعة التي لاتترك فريستها أبدا لكنها حبيسة شفتين رفيعتين وظيفتهما الأساسية يجب أن تكون عد الكلمات التي تخرج من فمه. كل هذا – مجملا– يثير القلق للآخرين وكان البروفيسور راضيا تماما عن

نفسه.

أحدث الخادم صوتا ، فرفع عينيه إلى المدفأة، نظر إلى الوقت في ساعة حائط جميلة جدا شكلها فريد بين الأثاث الذي يحيط بها وقال بصوت أجش:

– الساعة السادسة وخمس وخمسون دقيقة ! يصل بريري الساعة السادسة والنصف . وأنت تعرضه اليوم متأخرا خمسة وعشرين دقيقة. المرة القادمة لو لم يكن البريد على مكتبي.

سأل الخادم قبل أن ينسحب.– سيدي هل تريد العشاء الآن؟

– الساعة السادسة وخمس وخمسون دقيقة، وأتناول العشاء الساعة السابعة! أنت تعرف ذلك منذ ثلاثة أسابيع فترة عملك عندي! احفظ أيضا أنني لا أغير أبدا موعدا وأنني لاأكرر أوامري .

وضع البروفيسور جريدته على طرف الطاولة وأخذ يكتب مذكرة ستنشر اليوم التالي في "**أنالين فير فيزيولوچي**" . كان لهذا المقال وبدون تحفظ العنوان التالي:

" لماذا أصيب كل الفرنسيين بدرجات مختلفة بفساد الأصل في المسائل الوراثية.

بينما يكمل البروفيسور مهمته ، قدّم إليه العشاء في هدوء، وهو مكون من طبق كبير به سوسيس بالخضراوات وبجانبه كوب جعة به رغوة كثيفة . وضع البروفيسور ريشته ليتناول عشاءه، تذوقه في سعادة غير منتظرةمن رجل حازم مثله، ثم رن الجرس ليأخذ القهوة ، أشعل غليونه الخزفي واستأنف العمل. قربت الساعة من منتصف الليل عندما وقّع الورقة الأخيرة وذهب على الفور إلى غرفة نومه ليحصل على قسط من الراحة في سريره فقط. فتح صفحات الجريدة وبدأ القراءة قبل أن ينام في اللحظة التي بدأ فيها النعاس يتسلل إليه ، لفت انتباه البروفيسور اسم غريب، وهو اسم "**لانچيفول**" ، في الخبر الخاص بالميراث الضخم ، لكنه أراد أن يتذكر ما الذكرى التي يثيرها فيه هذا الاسم؟ ولم يستطع . بعد بضع دقائق في بحث عديم الفائدة ، ألقى بالجريدة وأطفأ الشمعة واستسلم للنعاس.

على الرغم من ذلك ، وفقا لظاهرة فسيولوچية درسها وشرحها بنفسه باستفاضة، تبع

اسم "**لانچيڤول**" البروفيسور "**شولتز**" في أحلامه حتى أنه فوجيء بنفسه في الصباح يردد هذا الاسم.

فجأة في اللحظة التي همَّ فيها بالنظر إلى ساعته لمعرفة الوقت لمعت في رأسه فكرة مفاجئة . أسرع إلى الجريدة التي وجدها عند مؤخرة سريره ، قرأ مرارا وتكرارا وهو يمر بيده على رأسه كأنه يركز الأفكار في الفقرة التي تركها بالأمس ، لقد استنار عقله ، جرى إلى المدفأة دون أن يأخذ وقتا لارتداء الروب، اقتلع صورة صغيرة أدارها ومر بيده على الورق المقوى المغطى بالغبار الذي يشكل ظهرها.

لم يخطئ البروفيسور. خلف الصورة كتب بخط مصغر يكاد يكون ممحيا منذ نصف قرن :

("**تيريز شولتز لانچيڤول**")

في نفس المساء استقل البروفيسور القطار إلى "**لندن**" .

الفصل الرابع

القسمة على اثنين

في السادس من نوفمبر (تشرين الثاني) وصل الهر "**شولتز**" إلى محطة "**شيرنج - كروس**" في الثانية عشرة ظهرا ، تقدم إلى رقم ٩٣، "**ساوثامبتون رو**" في قاعة كبيرة مقسمة إلى جزءين بحاجز خشبي- جانب السادة المحامين وجانب العامة- قاعة مؤثثة بستة مقاعد وطاولة سوداء ، صناديق ورقية خضراء كثيرة وقاموس للعناوين وهناك شابان جالسان أمام الطاولة. يأكلان في هدوء طعام الغداء وهو خبز وجبن تقليدي ورجال القضاء في جميع أنحاء البلدة .

قال البروفيسور بنفس الصوت الذي يطلب به عشاءه.

– السادة "**بيلوز**" و"**جرين**"و"**شارب**" ؟

– السيد "**شارب**" في مكتبه- ما اسمك، ما القضية؟

– البروفيسور "**شولتز دي إينا**"، قضية "**لانچيڤول**". همس المحامي الشاب بهذه المعلومات عبر سماعة تصل لمكان آخر.

واستقبل الإجابة في أذنه حديث حرص ألا يجعله عاما وهذا الحديث يمكن أن يترجم للآتي.

" إلى الجحيم قضية "**لانچيڤول**" ! ها هو مجنون آخر الذي يعتقد أن لديه ألقابا ! " .

أجاب المحامي الشاب :

– إنه رجل ذو مظهر محترم. لايبدو لطيفا.

تعجب جديد غامض!

– وهو آت من "**ألمانيا**" ؟

– يقول ذلك .

سمع تنهدا عبر السماعة.

– دعه يصعد.

قال المحامي الشاب بصوت مرتفع وهو يشير إلى ممر داخلي.

– طابقان والباب في المواجهة.

تقدم البروفيسور في الردهة وصعد الطابقين ووجد نفسه أمام باب كتب عليه بأحرف سوداء على لوحة نحاسية اسم السيد "**شارب**".

جلست هذه الشخصية أمام مكتب كبير من خشب الأكجو.

في مكتب مفروش بسجادة من اللباد. نهض بالكاد من فوق مكتبه، ووفقا لعادة رجال المكاتب، أخذ يقلب في الملفات مدة خمس دقائق حتى يبدو منشغلا جدا، أخيرا استدار إلى البروفيسور "**شولتز**". الذي جلس أمامه.

قال:

– سيدي هل تسمح أن تخبرني بسبب مجيئك، وقتي محدود للغاية، ولا أستطيع أن أمنحك سوى بضع دقائق.

ابتسم البروفيسور ابتسامة خافتة موضحا أنه غير مبال بطبيعة هذه المقابلة.

قال:

– ربما تجد خيرا في أن تمنحني دقائق إضافية لو علمت سبب مجيئي.

– تكلم إذن يا سيدي.

– الأمر يتعلق بإرث "**چون چاك لانچيڤول**" من "**بارلوديك**"، أنا حفيد أخته الكبرى، "**تيريز لانچيڤول**". تزوجت ١٧٩٢ من جدي "**مارتان شولتز**" جراح في جيش "**برانسويك**" ومات سنة ١٨١٤. لدي ثلاثة خطابات من خالي الأكبر كتبها لأخته، والعديد من آثار زيارته للمنزل بعد حرب "**أيينا**" بالإضافة إلى الأوراق الشرعية التي تثبت نسبي.

لاطائل بعد متابعة شرح البروفيسور "**شولتز**" الذي يقدمه للسيد "**شارب**". إن هذا ضد عادته التي تميل إلى الإسهاب في الحقيقة، إن ما يعنيه أن يظهر للسيد "**شارب**" الإنجليزي، ضرورة تفوق العنصر الجرماني على كل العناصر الأخرى. إذا كان يتابع فكرة

المطالبة بهذا الإرث، فذلك على الأخص لكي ينتزعها من يدي الفرنسي الذي لايستطيع أن يستغلها سوى استغلال أخرق!.. إن ما يكرهه في منافسه، كان على الأخص جنسيته!.. أمام ألماني ، لم يكن ليصر هذا الإصرار لكن فكرة إدعائه عالم ، فرنسي يستطيع أن يستغل هذا المبلغ الكبير في خدمة الأفكار الفرنسية ، جعلته يخرج عن شعوره، وجعلت من واجبه أن يعلن عن حقوقه بمنتهى القوة.

من الوهلة الأولى ، من الممكن ألا يكون ترابط الأفكار ، واضحا بين هذا الانحراف نحو السياسة والميراث الضخم ولكن لدى السيد "**شارب**" الخبرة بالقضايا ليلاحظ العلاقة العليا الموجودة بين التطلعات القومية للعنصر الجرماني بوجه عام والتطلعات الخاصة لـ"**شولتز**" نحو ميراث البيجوم. إنها في الواقع بنفس الترتيب.

من ناحية أخرى ، لم يكن هناك شك محتمل ، من المهين جدا بالنسبة لبروفيسور في جامعة "**إيينا**" أن يكون له صلة قرابة بأناس من جنس متدني، من الواضح أن جدة فرنسية عليها جزء من مسؤولية صنع هذا المنتج البشري الذي لامثيل له. فقط هذه القرابة من الدرجة الثانية بالنسبة للدكتور "**سارازان**" لن تعطيه سوى بعض الحقوق الثانوية للميراث المزعوم . على الرغم من ذلك رأى المحامي إمكانية تدعيم هذه الحقوق ببعض مظاهر الشرعيةوفي هذا الاحتمال لمح فائدة أخرى لمجموعة"**بلوز، جرين وشارب**" وهو أن تتحول قضية "**لانجيفول**" الجميلة بالفعل إلى قضية رائعة. أفق من الأوراق المختومة، سندات، أوراق من كل طبيعة ممتدة أمام عيني رجل القانون أو أيضا ، من الأفضل ، فكر في خطة يديرها "**شارب**" في مصلحة عميليه الاثنين مما سيجلب عليه نفسه "**شارب**" ربما شرفا أكثر منه منفعة .

على الرغم من ذلك، أعلم هر "**شولتز**" مستندات الدكتور "**سارازان**" أعطاه البراهين وأعلمه أن إذا اتخذت مجموعة "**بلوز، جرين وشارب**" جانبا مناصرا للبروفيسور ليحصل على حقوقه الظاهرية – " الظاهرية فقط ياسيدي العزيز، والتي لاتصمد أمام مرافعة جيدة" . التي تعطيها إياه قرابته بالدكتور، اعتمد على الحس العالي للعدالة الذي يمتلكه كل الألمان أن يقبل بأن تحصل مجموعة "**بلوز، جرين وشارب**" أيضا بهذه

المناسبة على حقوق ، أكثر سطوة باعتراض البروفيسور.

هذا الأخير كان موهوبا حتى لايفوته فهم منطقية رجل الأعمال.

شعر براحة البال، دون أن يحدد شيئا.

طلب منه السيد "**شارب**" في أدب السماح له بفحص القضية.

لم تعد المسألة في هذا الوقت بضع دقائق محددة بحزم .

انسحب هر "**شولتز**" مقتنعا بأن ليس لديه مستند قوي يثبت حقه في ميراث البيجوم ، لكن على الرغم من ذلك كان مقتنعا أن معركة بين الجنس الساكسوني والجنس اللاتيني بالإضافة إلى أنها تستحق العند، لاتستطيع إلا أن تكون لصالح الجنس الأول.

المهم هو حسن رأي الدكتور "**سارازان**" .استعجال تلغرافي بعث على الفور إلى "**بريجتون**" ، ساق العالم الفرنسي إلى مكتب المحامي في حوالي الخامسة.

استقبل الدكتور "**سارازان**" الخبر بهدوء أدهش السيد "**شارب**" .

عند الكلمات الأولى للسيد "**شارب**" ، صرح له بكل وفاء أنة في الحقيقة يتذكر أنه سمع حديثا في عائلته عن عمة كبيرة تولت تربيتها سيدة ثرية ولها لقب ، هاجرت معها وتزوجت في "**ألمانيا**" .

وهو لايعرف من ناحية أخرى اسم ولا درجة القرابة المحددة لهذه العمة الكبرى.

حصل السيد "**شارب**" على أوراق وضعها بعناية وعرضها على الدكتور في ملاطفة.

يوجد هنا- لم يخف السيد "**شارب**" ذلك- مادة لرفع دعوى والدعاوى من هذا النوع قد تأخذ وقتا طويلا. في الحقيقة لم يكن هناك اضطرار لاعتراف الطرف المنافس بهذه المعلومة العائلية التي أفصح عنها توا الدكتور "**سارازان**" بوفاء لمحاميه.. ولكن كان هناك تلك الخطابات من "**چون چاك لانچيڤول**" لأخته التي تحدث عنها هر "**شولتز**" ، كانت ذريعة في صالحه، ذريعة ضعيفة في الحقيقة ، خالية من أي صفة قانونية ولكنها في النهاية ذريعة ، براهين أخرى بدون شك سيزال عنها الغبار من أرشيف البلدية. ربما

حتى يلجأ الطرف المنافس إلى تأليف قرائن أخرى في حالة عدم وجود أوراق أصيلة يجب توقع كل شيء ! من يدري إذا منحت تحقيقات جديدة للمدعوة "**تيريز لانچيڤول**" ، التي خرجت فجأة من تحت الأرض، ولخلفائها الحاليين حقوقا تفوق تلك التي للدكتور "**سارازان**"على أية حال، منازعات طويلة ، تحقيقات طويلة، وحل بعيد !

احتمالات الكسب كبيرة بالنسبة للطرفين ، من الممكن أن يشكل من الطرفين شركة توصية (يساهم الطرفان في رأس المال دون الاشتراك في الإدارة) .

دفع نفقات الإجراءات واستنفاد كل وسائل القضاء ، تعاقبت قضية من نفس النوع خلال ثلاثة وثمانين عاما في المحكمة ولم تنته إلا لنقص الأموال. الفوائد ورأس المال، كل شيء انتهى!

تحقيقات ، لجان، انتقالات ، إجراءات اتخذت وقتا لانهائيا! . .

خلال عشر سنوات من الممكن أن تبقى المسألة غير محسومة، والنصف مليار نائمة دائما في البنك .

استمع الدكتور "**سارازان**" إلى هذا الحديث وهو يسأل نفسه متى ينتهي . دون أن يقبل ما يسمعه كأنه كلام حجةٌ ، تسلل إلى نفسه شعور غير مشجع كالمسافر الذي يميل إلى مقدمة السفينة يرى الميناء المتباعد ، ثم يصبح غير واضح، وأخيرا يختفي ، قال لنفسه إنه من غير المستحيل أن هذه الثروة، التي كانت منذ قليل قريبة جدا ووجد لها وظيفة ، ينتهي بها الأمر إلى أن تتحول إلى بخار وتختفي.

سأل المحامي :

" في النهاية ما العمل؟" .

ما العمل؟ . . هم! . من الصعب تحديد ذلك ، وتحقيقه أيضا أكثر صعوبة . لكن في النهاية يمكن تسوية كل شيء . "**شارب**" كان متأكدا من تلك العدالة الإنجليزية عدالة ممتازة- بطيئة بعض الشيء - ربما . هم! . . هم! . ولكن أكثر تأكيدا ! بالتأكيد لن يفوت الدكتور "**سارازان**" بعد بضع سنوات الحصول على هذا الإرث، إذا . . هم!

كانت أوراقه كافية! . .

خرج الدكتور من مكتب "**ساوثامبتون رو**" وثقته مهتزة مقتنعا أن عليه الخوض في سلسلة غير منتهية من الدعاوى أو أن يعدل عن حكمه. فكر في مشروعه الجميل الإنساني. لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بالأسف عليه.

اتصل السيد "**شارب**" بالبروفيسور "**شولتز**" الذي ترك له عنوانه وأخبره أن الدكتور "**سارازان**" لم يسمع أبدا عن "**تيريز لانچيڤول**"، واعترض تماما على وجود فرع ألماني في العائلة ورفض أي تسوية أو مصالحة. لم يعد أمام البروفيسور إذن سوى أن يرفع دعوى في المحكمة، السيد "**شارب**" الذي لم يحمل لهذه القضية إلا عدم اكتراث مطلق. لكن ماذا يستطيع أن يطلب محام إلا دعوى، أو عشر سنوات أو ثلاثين سنة من القضايا.

وكان "**شارب**" شخصيا سعيدا بذلك. لو لم يخش أن يقدم للبروفيسور عرضا يثير الشك من جانبه، كان سيدفعه عدم اهتمام إلى أن يشير إليه باللجوء إلى أحد زملائه الذي يستطيع أن يوليه رعايته. وبالتأكيد الاختيار مهم! مهنة القانون أصبحت طريقا كبيرا جدا حقا!.. المغامرون والأشرار نموا في هذه المهنة!..

كان خجلا من ذلك!

سأل البروفيسور:

– إذا أراد الدكتور الفرنسي التصالح، كم سيتكلف ذلك.؟"

رجل حكيم، لاتستطيع الكلمات أن تفقده التركيز! رجل عملي، يذهب مباشرة إلى الهدف دون أن يفقد وقتا غاليا في الطريق!

احتار السيد "**شارب**" قليلا لهذا السلوك. قال للهر"**شولتز**" إن القضايا لاتسير بهذه السرعة، وأننا لانستطيع التنبؤ بالنتيجة والأمر مازال في بدايته وأنه لكي يصل السيد "**سارازان**" إلى الصلح يجب أن تأخذ الأمور وقتها حتى لايعرف أن "**شولتز**". مستعد للصلح. أنهى حديثه قائلا:" أرجوك ياسيدي دع لي الأمر وسأجيب عن كل شيء.

أجاب السيد "**شولتز**":

– أنا أيضا . لكني أريد أن أعرف ماهية موقفي.

على الرغم من ذلك لم يستطع هذه المرة أن ينتزع من السيد "**شارب**" إلى أي حد يقدر المحامي العرفان الساكسوني وعلى هذا ترك له حرية التصرف في الأمر.

عندما أعاد الدكتور "**سارازان**" الاتصال بالسيد "**شارب**" في اليوم التالي ، سأله في هدوء إذا كان لديه أخبار جديدة مهمة. أخبره المحامي قلقا من هذا الهدوء أن بعد الفحص رأى أنه من الأفضل قطع السوء من جذوره وعرض الصلح على المدعي الجديد لقد توصل السيد "**سارازان**" إلى هذا ، نصيحة غير مقبولة ، قليل جدا من المحامين يعرضونها في مكان السيد "**شارب**" !

لكنه أراد تسوية هذه القضية بسرعة والتي نظر إليها بعيني الأب استمع الدكتور "**سارازان**" إلى هذه النصائح التي وجدها بشكل تقريبي حكيمة . لقد اعتاد منذ بضعة أيام على فكرة تحقيق حلمه العلمي على الفور، وأن يقدم كل شيء لهذا المشروع، الانتظار عشر سنوات أو حتى سنة واحدة قبل أن يستطيع تنفيذ مشروعه قد يصبح بالنسبه له الآن خيبة أمل قاسية فهو غير معتاد على المسائل القانونية والمالية ودون أن ينخدع بكلمات السيد "**شارب**" الحلوة كان سيتمسك بحقوقه ليحصل على مبلغ كبير يسمح له بالعبور من النظرية إلى العملية . أعطى هو أيضا إذن حرية التصرف للسيد "**شارب**" ومضى.

حصل المحامي على ما يريد، كان صحيحا لو أن آخر في مكانه فربما كان سيلجأ إلى محاولة بدء ومد الإجراءات المتوقعة لدراسته ليحصل على دخل كبير ،لكن لم يكن السيد "**شارب**" من هؤلاء الذين يميلون إلى المضاربات طويلة الأمد رأى في متناوله الوسيلة السهلة ليجني بضربة واحدة حصادا وفيرا، وقد قرر الحصول عليه . في اليوم التالي كتب للدكتور تاركا له فرصة الاستنتاج أن هر "**شولتز**" ربما لن يعارض أي فكرة للتسوية. خلال زيارات جديدة، أجراها المحامي بنفسه سواء للدكتور "**سارازان**" أو للهر "**شولتز**" كان يقول بالتبادل للأول والآخر أن الطرف المنافس لايريد سماع شيء بالإضافة

إلى ذلك، هناك طرف ثالث جذبته رائحة الثروة..

استمرت هذه اللعبة ثمانية أيام . كل شيء يسير على ما يرام في الصباح ، وفي المساء يظهر فجأة اعتراض غير متوقع يفسد كل شيء لم يكن الأمر بالنسبة للدكتور الطيب سوى مكائد ، تردد، وتقلبات. لم يستطع السيد "**شارب**" أن يقرر رفع الصنّارة بسبب خشيته أن يتحرك السمك في أخر لحظة يقاوم ويقطع الخيط. ولكن كثرة الحذر في هذه الحال تعدّ مبالغة.

منذ اليوم الأول، كما قال، الدكتور "**سارازان**" الذي أراد أن يوفر على نفسه مضايقات القضية . كان مستعدا للتسوية. وأخيرا عندما اعتقد السيد "**شارب**" أن اللحظة النفسية، وفقا للتعبير المشهور قد حانت أو- في لغته الأقل نبلا- أن العميل قد "نضج"، أزاح القناع على الفور وعرض مصالحة فورية.

تقدم رجل ذو مساع طيبة ، رجل البنك "**ستيلبنج**" الذي عرض حل النزاع بين الطرفين ، أن يحسب لكليهما مائتين وخمسين مليونا ولايأخذ سوى ما يزيد على نصف مليار وليكن سبعا وعشرين مليونا كعمولة.

كاد الدكتور "**سارازان**" أن يقبل السيد "**شارب**" عندما ساق إليه هذا العرض الذي بدا له في مجمله رائعا . كان مستعدا تماما للتوقيع، لم يطلب سوى التوقيع ، كان مستعدا للتصويت من أجل حصول المصرفي "**ستيلبنج**"، والمحامي "**شارب**" والبنك وكل منازعات المملكة المتحدة على التمثال الذهبي.

حررت العقود ، ووقع الشهود ، عاد هر "**شولتز**" وقد أوصله المدعو "**شارب**" إلى هدفه، استطاع أن يتأكد مرتعشا أن مع خصم مثل الدكتور "**سارازان**" كان من المؤكد أن يحصل على نفقاته انتهى الأمر بسرعة ، بين المفاوضات الظاهرية وقبولهم القسمة المتساوية، حصل الوريثان على شيك قيمته مائتا ألف جنيه استرليني قابلة الدفع ووعود بتسويةنهائية بمجرد إنهاء الإجراءات القانونية.

هكذا انتهت ، بانتصار عظيم للتفوق "الأنجلو ساكسوني هذه القضية المدهشة.

في نفس المساء، شرب السيد "**شارب**" أثناء تناول العشاء في (كوبون كلاب) مع

صديقه (**ستيلبنج**) ، كأس شراب نخب دكتور "**سارازان**" وآخر نخب البروفيسور "**شولتز**") وأكمل الزجاجة هاتفا بهذه الكلمات غير المفهومة . (! قانون بريطانيا ! . . . لايوجد سوانا)

في الحقيقة اعتبر المصرفي "**ستيلبنج**" ضيفه رجلا مسكينا ترك من أجل سبعة وعشرين مليونا قضية بخمسين ، وفي الواقع، فكر البروفيسور نفس الشيء، في اللحظة التي شعر فيها بأنه مضطر لقبول أي تسوية! وماذا كان يمكن عمله مع رجل مثل الدكتور "**سارازان**" سلس ، خفيف ، متحرك وبالتأكيد صاحب خيال .

سمع البروفيسور عن مشروع خصمه بأن يؤسس مدينة فرنسية في ظروف صحية وأخلاقية ومادية نظيفة لتنمية الخصال الحميدة للجنس الفرنسي ، ولتكوين أجيال شابة قوية وشجاعة .

بدا له هذا المشروع سخيفا، وفي تفكيره يجب أن يفشل لأنه ضد قانون التقدم الذي يحتم انهيار الجنس "اللاتيني" وعبوديته للجنس "الساكسوني" وبعد ذل؛ اختفاءه الكلي من على وجه الأرض وعلى الرغم من ذلك فقد تسقط هذه النتائج إذا بدأ الدكتور في تنفيذ برنامجه ، ولن تسقط بسبب أقوى هو الإيمان بنجاح هذا البرنامج . إنه ينتمي إلى الجنس "الساكسوني" ، ولصالح النظام العام ولطاعة قانون غير مكتوب إذا استطاع مشروع بهذا الجنون وفي هذه الظروف ، كان من الواضح أن "**شولتز**" بروفيسور الكيمياء في جامعة "**إيينا**" معروف . أعماله العديدة المقارنة بين الأجناس البشرية المختلفة– أعمال أثبت فيها أن الجنس الجرماني يجب أن يبتلع الأجناس كلها في النهاية لأن من الواضح أنه مقتنع على وجه الخصوص بالقوة الكبرى الخلاقة والمدمرة على حد سواء للطبيعة لتفني هؤلاء الأقزام الذين يتمردون عليها . منذ الأزل كُتب أن تتزوج "**تيريز لانچيڤول**" بـ"**مارتن شولتز**" وأن في يوم تتواجد الجنسيتان في شخصي الدكتور الفرنسي والبروفيسور الألماني ، هذا يحطم الآخر . إن في يده بالفعل نصف ثروة الدكتور وكانت هذه هي الأداة التي تلزمه .

من ناحية أخرى ، لم يكن هذا المشروع بالنسبة لهر "**شولتز**" سوى مشروع قانوني ،

ويضاف إلى مشروعات أخرى أكثر اتساعا والتي يكونها لتدمير كل الشعوب التي ترفض الانصهار مع الشعب الجرماني ، أراد أن يعرف أصل – إذا كان لهما أصل– خُطط الدكتور "**سارازان**" الذي يشكل عدوه اللدود، لقد قبل في المجلس الدولي للصحة ويتابع بانتظام جلساته. في نهاية هذا الاجتماع حيث بعض الأعضاء ومن بينهم الدكتور "**سارازان**" سمعوه يعلن هذا التصريح إنه سيقيم في نفس الوقت الذي تقام فيه "**فرانس ڤيل**"مدينة قوية لن تدع وجودا لهذا الجمع من البشر العبثي وغير الطبيعي .

أضاف :

– آمل أن التجربة التي تنفذها تكون مثالا يخدم العالم.

الدكتور الطيب "**سارازان**" مفعم بالحب للإنسانية، لم يكن في حاجة لكي يعلم أن ليس كل أمثاله يستحقون اسم (محبي الإنسانية) سجل بعناية كلمات خصمه مفكرا كرجل عاقل ألا يجب إغفال أي تهديد ، بعد مرور بعض الوقت ، كتب يدعو "**مارسيل**" ليساعده في مشروعه ، قصَّ عليه هذه الواقعة ووصف له هر "**شولتز**" مما أفهم الشاب الألزاسي أن الدكتور الطيب لديه خصم عنيد ، وأضاف الدكتور:

سنحتاج إلى رجال أشداء ومفعمين بالطاقة ، علماء نشيطون ليس فقط للتشييد ولكن لحمايتنا.

أجابه "**مارسيل**" :

– إذا لم أستطع مساعدتك على الفور في بناء مدينتك ، ثق بأنك ستجدني في الوقت المناسب ، لن أضيع فرصة واحدة لرؤية هر "**شولتز**" الذي رسمته لي جيدا . طبيعتي الألزاسية لاتعطي لي الحق في هذه الأعمال من قريب أو بعيد . كشفت لك عن كل شيء . إذا – وهذا مستحيل– بقيت بضعة أشهر أو حتى سنين دون أن تسمع عني فلا تقلق ، من بعيد كما من قريب،لكن لن يكون لدي سوى فكرة واحدة " أن أعمل من أجلك، ونتيجة لذلك أخدم "**فرنسا**" .

الفصل الخامس

مدينة الفولاذ

تغير الوقت والزمان. مضت خمس سنوات وميراث البيجوم بين أيادي الوريثين وانتقل المشهد إلى الولايات المتحدة جنوب "**أوريجون**" بالقرب من ساحل "**الباسيفيك**" هناك تمتد مقاطعة مازالت مبهمة، غير مرسومة الحدود بين القوتين المتجاورتين، تماثل بشكل ما "**سويسرا**" أمريكية "**سويسرا**"، في الحقيقة ما لم ينظر إلا للأمور السطحية ، القمم الشامخة التي ترتفع نحو السماء ، الأودية العميقة التي تفصل بين سلاسل الجبال ، المنظر الضخم والمتوحش لكل المواقع .

لكن "**سويسرا**" هذه المزيفة ليست مثل "**سويسرا**" الأوربية التي عهد بها لصناعات الرعاة السلمية، والمرشدين والعاملين في الفنادق إنه ليس سوى ديكور ألبي، إنها لوحة رديئة من الصخور، الأرض والأرز موضوعة على كتلة حديد والفحم الحجري .

إذا توقف السائح في هذا المكان المنعزل ، وأعطى أذنه لأصوات الطبيعة ، فلن يسمع، كما بين أشجار "**أوبرلاند**" الهمس المتناغم للحياة مختلطا بصمت الجبل . لكن سيسمع من بعيد ضربات المطرقة وتحت قدميه الطنين المختنق للغبار . يبدو أن التربة ميكنة مثل أرض المسرح، إن هذه الصخور العملاقة تصدر رنينا وتستطيع بين لحظة وأخرى أن تسقط في أعماق غامضة.

الطرق ، مكدومة بالرماد والفحم، تتقدم على جوانب الجبال تحت طبقات الحشائش الضاربة للصغار ، كومات صغيرة من خبث المعادن بها كل ألوان المنشور (البلور ذي أوجه متوازية مع مستقيم). لامعة . هناك نبرة منجم قديم مهجور مقطع بفعل الأمطار ، لوثته فروع الأشجار فاتحا فاه الواسع ، كهف بدون قاع مثل فوهة بركان منطفئ . الجو معبأ بالدخان جاثم مثل معطف أسود على الأرض.

لايوجد عصفور يعبره ، حتى الحشرات يبدو أنها تهرب منه ولايوجد أي ذكرى لإنسان.

"**سويسرا**"مزيفة! في الحدود الشمالية ، في النقطة التي تنصهر فيها الجبال في السهل ، تفتح بين سلسلتين ممرات ضيقة وهذا ما سمي حتى ١٨٧١ "الصحراء الحمراء" بسبب لون التربة المشبعة بأكسيد الحديد وهي تسمى الآن "**ستالفيلد**" "**حقل الفولاذ**"؟

أرض. ذات بضعة أمتار مربعة، تربتها رملية يفترشها الحصى، ملساء ومنعزلة مثل سطح بحر داخلي قديم، لبعث الحياة في هذه الأرض، لإعطائها الحياة والحركة ، لم تفعل الطبيعة شيئا ، ولكن بذل الإنسان على الفور طاقة وقوة ليس هناك ما يعادلها .

على السهل العاري الصخري ، في خمس سنوات ظهرت ثماني عشرة قرية عمال، بها بيوت خشبية صغيرة ذات شكل واحد رمادية اللون، أحضرت كل المباني من "**شيكاغو**"واحتوت على عدد كبير من العمال الأقوياء .

في وسط هذه القرى، عند سفح "**كولز باتز**" جبال لاتنضب من الفحم، ارتفعت كتلة داكنة ، مبنى ضخم، غريب ، مجمع مباني منتظمة بها نوافذ مغطاة بأسقف حمراء ، تعلوها غابة مداخن اسطوانية تضخ من أفواهها بخارا. السماء محجوبة بستارة سوداء يمر عليها برق أحمر من وقت لآخر. الريح تحمل زئيرا بعيدا يشبه الرعد أو الأمواج الصاخبة ولكنه أكثر انتظاما وقوة.

هذه الكتلة هي "**ستالستاد**"(مدينة الفولاذ) المدينة الألمانية الملك الخاص لـ هر "**شولتز**" . بروفيسور الكيمياء السابق في جامعة"**أيينا**" الذي أصبح بفعل ملايين البيجوم أكبر عالم حديد، وعلى وجه الخصوص أكبر صانع للبنادق في العالمين.

إنه يصنعها بكل أشكالها وبكل عيار، ذات مؤخرة ثابتة أو متحركة يصنعه لـ"**روسيا**" ولـ"**تركيا**"، ولـ"**رومانيا**" و"**اليابان**" ولـ"**إيطاليا**" ولـ"**الصين**"، ولكن خاصة لـ"**ألمانيا**".

بفضل قدرة رأس المال الضخم، خرجت من الأرض منشأة عملاقة ، مدينة حقيقية ، وهي في نفس الوقت مصنع نموذجي . ثلاثة آلاف عامل ، أغلبهم من أصل ألماني جاءوا ليجتمعوا حول المدينة وليكونوا الأبراج. خلال بضعة أشهر حصلت منتجاتهم الناتجة

عن تميزهم على الشهرة العالمية . يحصل البروفيسور "**شولتز**" على ما يحتاج إليه من الحديد وفحم حجري من مناجمه التي يمتلكها مع مصانعها في مكانها، يحولها إلى فولاذ منصهر، في مكانها يصنع منها البنادق.

هذا ما لا يستطيع أن يحققه أحد من منافسيه في "**فرنسا**" يتم الحصول على سبائك الفولاذ وتبلغ أربعين ألف كيلو جرام في "**إنجلترا**" تم صنع مدفع من الحديد الصلب يبلغ مائة طن.

لايعرف هر "**شولتز**" حدودا : اطلب منه مدفعا بوزن معين وبقدرة مهما كانت ، سيقدم لك ذلك المدفع لامعا كالعملة المعدنية الجديدة في الوقت المتفق عليه.

لكن ، مثلا ، سيجعلك تدفع الثمن ، يبدو أن المائتين والخمسين مليونا لسنة ١٨٧١ لم تفعل سوى أن فتحت شهيته.

في صناعة المدافع كما في كل شيء عندما تستطيع أن تفعل مالا يستطيعه الآخرون ولايوجد ما يقال، لاتبلغ فقط مدافع هر "**شولتز**" المقاييس التي لم تحدث من قبل، لكنها لاتنفجر أبدا ، يبدو أن فولاذ "**ستالستاد**"له مميزات خاصة . انتشرت بهذا الصدد أساطير غامضة عن أسرار كيميائية والشيء المؤكد هو أن أحدا لايعرف الحقيقة.

ومما هو مؤكد أيضا أن في "**ستالستاد**" قد حفظ السر بعناية.

في هذا الركن المبتعد عن "**أمريكا الشمالية**" المحاط بالصحراء، المعزول عن العالم بحزام من الجبال ، تبعد عنه تجمعات سكنية الأكثر قربا بخمسمائة ألف ميل. حيث يبحث بغير طائل عن أثر للحرية التي صنعت قوة جمهورية "**الولايات المتحدة**" .

عند الوصول إلى حوائط "**ستالستاد**" لاتحاول عبور أحد الأبواب الضخمة التي تقطع من مسافة إلى أخرى خط المباني الضخمة سوف تمنع من الدخول. يجب أن تنزل في إحدى الضواحي. لن تدخل مدينة الفولاذ إلا إذا كان لديك العلامة السحرية، كلمة السر، أو على الأقل تصريح مختوم وموقع .

هذا التصريح ، يملكه بدون شك عامل شاب وصل إلى "**ستالستاد**" صباح أحد أيام

نوفمبر (تشرين الثاني) ذلك لأنه بعد أن ترك حقيبته الجلدية القديمة في الفندق، توجه سيرا على الأقدام إلى أقرب باب للمدينة.

إنه شاب لطيف، قوي البنية، غير مهتم بهندامه ، على شاكلة المتطوعين الأمريكيين ، يرتدي قميصا صوفيا بدون كولة وبنطلونا من القطيفة مدسوسا في الحذاء الضخم ذي الرقبة. ينزل على جبهته قبعة واسعة من اللباد كأنه يخفي غبار الفحم الذي يغطي بشرته، ويمشي بخطى خفيفة ويصفر في مرح.

وصل إلى الشباك، أظهر الشاب لرئيس الموقع ورقة مختومة فدخل على الفور.

قال المساعد :

- إذنك يحمل عنوان السيد "**سليجمان**" قسم ك ، شارع٩ ورشة٧٤٣ ليس عليك سوى اتباع الطريق الدائري على يمينك حتى القسم ك وقدم نفسك للحارس... هل تعرف النظام؟ أضاف الرجل في اللحظة التي ابتعد فيها القادم الجديد :

ستطرد إذا دخلت قسما غير القسم المقصود.

تبع العامل الشاب الاتجاه الذي أشار به إليه، وسلك الطريق الدائري .على يمينه حفر خندق يتنزه فوقه الحراس وعلى شماله ، بين الطريق الدائري الواسع وكتلة المباني، يوجد أولا الخط المزدوج لخط سكة حديد، ثم يرتفع حائط ثان مشابه للحائط الخارجي مما يشير إلى تجسيد مدينة الفولاذ.

كانت عبارة عن دائرة حيث قطاعاتها محددة على شكل أقسام بواسطة خطوط الواحدة منفصلة تماما عن الأخرى على الرغم من أنها مغلفة بحائط وخندق مشتركين.

وصل العامل الشاب إلى القسم (ك) في مواجهة باب أثري نُحت عليه نفس الحرف المنحوت في الصخر، قدم نفسه للحارس.

في هذه المرة بدلا من أن يتعامل مع جندي ، وجد نفسه أمام رجل معوق، له ساق خشبية وعلى صدره النياشين فحص المعوق الأوراق ووضع عليها طابعا جديدا وقال :

" سر في خط مستقيم ، تاسع شارع على الشمال."

عبر الشاب هذا الخط الثاني ووجد نفسه أخيرا في القسم "ك" الطريق الذي يفتح عليه الباب كان هو المحور، على كل جانب امتدت في زاوية مستقيمة خيوط إنشاء

موحدة الشكل.

كان ضجيج الآلات صاخبا .، هذه المباني الرمادية اللون، يدخلها نور الصباح من عدة نوافذ تشبه الوحوش الحية أكثر منها أشياء لاحركة فيها . لكن القادم الجديد- بدون شك كان قد سئم من رؤية هذا المشهد، ذلك لأنه لم يعره أدنى اهتمام.

في خمس دقائق وجد شارع٩، ورشة ٧٤٣ . وصل إلى مكتب صغير مليء بالصناديق والسجلات كما وجد السيد "**سليجمان**" . أخذ هذا الأخير الورقة التي عليها كل التأشيرات تحقق منها ونظر إلى العامل الشاب.

سأله :

– تلتحق بالعمل كمسوط حديد؟ ألست حديث السن على ذلك؟

أجاب الآخر:

– لايهم السن. أبلغ ستة وعشرين عاما وعملت مسوط حديد سبعة أشهر.. إذا كان هذا يهمك يمكنني أن أطلعك على الشهادات التي قدمتها إلى مدير شؤون العاملين في "**نيويورك**" التي على أثرها ألحقت بالعمل.

تحدث الشاب الألمانية ليس بدون سهولة ولكن بلكنة أدخلت الشك في نفس رئيس العمل.

سأله الآخر:

– هل أنت ألزاسي؟

– لا أنا سويسري.. من "**شافوز**" تفضل، هذه كل أوراقي سحب من حافظة جلدية وقدم إلى رئيس العمل جواز سفر ، كتيب وشهادات .

استطرد "**سليجمان**" وقد اطمأن لهذه الوثائق الرسمية:

– هذا حسن . على أية حال، لقد ألحقت بالعمل وليس علي سوى أن أرشدك إلى مكانك.

كتب في سجل "**چوان شوارتز**" وسلم للشاب بطاقة زرقاء باسمه، تحمل رقم ٥٧٩٣٨ وأضاف:

– يجب أن تكون أمام باب "ك" كل صباح الساعة السابعة تقدم هذه البطاقة التي ستسمح لك بعبور الباب الخارجي ، ستأخذ قطعة معدنية منقوشا عليها رقمك وستطلعني عليها عندما تصل في الساعة السابعة مساء ، عند خروجك تلقي بها في صندوق عند باب الورشة الذي لن يفتح إلا في هذه اللحظة .

سأل "**شوارتز**" :

– أعرف النظام .. هل أستطيع أن أقيم في الموقع؟

– لا ،يجب أن توفر مسكنا بالخارج، لكن يمكنك تناول وجباتك في مقصف الورشة مقابل ثمن معتدل ، راتبك دولار في اليوم كمبتدئ سيتزايد كل ثلاثة أشهر .. الطرد هو العقاب الوحيد أنذر أنا به وينفذه المهندس لكل انتهاك للنظام .. هل ستبدأ اليوم؟

– ولم لا ؟

قال رئيس العمل وهو يقوده إلى ورشة داخلية :

– لن يكون سوى نصف يوم .

مشى الاثنان في ممر واسع، عبرا فناء، ودخلا قاعة واسعة تشبه في أبعادها وهيكلها محطة القطار .قاسها "**شوارتز**" بنظره لم يستطع أن يمنع نفسه عن إبداء إعجابه المهني .

من كل جانب من هذه القاعة الطويلة صفان ضخمان والأعمدة الأسطوانية كبيرة من حيث القطر والارتفاع مثل أعمدة " **سان بيلير**" في "**روما**" ترتفع عن الأرض حتى قبة من الزجاج . إنها مداخن أفران سوط الحديد الذي ينصهر في قاعها . هناك خمسون منها على كل صف .

في أحد الأطراف في عربات تجرها قطارات محملة بالسبائك التي تغذي الأفران في الطرف الآخر ، عربات قطار فارغة تستقبل هذه السبائك التي تتشكل من الفولاذ .

عملية (التسويط) وظيفتها هي هذا التحويل ومجموعات من العمال أجسادها نصف عارية مسلحون بخطاف حديدي طويل يقومون بهذا العمل بنشاط .

السبائك المنصهرة تُقذف في فرن مبطن بخبث المعادن .

للحصول على الحديد يجب البدء بشدة تسخين هذا المعدن المنصهر حتى يصبح طائعا .للحصول على الفولاذ ينتظر حتى يصبح المنصهر سائلا ويوضع في أفران ذات حرارة أكبر. مسوط الحديد إذن بطرف خطافه يحرك في كل اتجاه الكتلة المعدنية يقلبها ويعيد فيها اللهب ، ثم في لحظة معينة عندما تصل إلى درجة معينة من المقاومة بفعل اختلاطها بخبث المعادن يقسمها إلى أربع كرات يسلمها واحدة تلو الأخرى لمساعدي عمال المطرقة.

في نفس محور الصالة التي تتابع فيها هذه العملية ، في مواجهة كل فرن مطرقة تتحرك بعامل البخار الذي مصدر نفس المدخنة يشغلها عامل طرق الحديد، يرتدي حذاء برقبة وذراعين من الحديد ، ليحمي نفسه بمريلة سميكة من الجلد وعلى وجهه قناع معدني يأخذ هذا الرجل المدرع بطرف كماشته الطويلة الكرة المعدنية ويضعها تحت المطرقة، تضرب ويعاد ضربها تحت وزن هذه الكتلة الضخمة تخرج كالإسفنجة المواد غير النقية المحملة بها وسط وابل من الشرر.

يعيدها الرجل المدرَّع إلى المساعدين ليعيدوا وضعها في الفرن وبمجرد أن تسخن يعاد ضربها من جديد.

في اتساع هذا المصنع العملاق، الحركة لاتتوقف ، شلالات من السيور بدون نهاية، ضربات صاخبة وضجيج لاينتهي ، شيء أحمر ، أفران مشتعلة . بين هذا الصخب وثورة المادة المطوعة، يبدو الرجل كالطفل.

شباب قساة هؤلاء الذين يعملون في تسويط الحديد!

يحركون بأطراف أذرعهم وسط حرارة مشتعلة كرات معدنية تزن مائتي كيلو جرام يبقون عدة ساعات أعينهم مثبتة على الحديد الملتهب الذي يصيب بالعمى، إنه نظام قاس يفني الإنسان خلال عشر سنوات .

"**شوارتز**" كأنه يريد أن يثبت لرئيس العمل أنه يستطيع أن يتحمله ، تجرد من قميصه الصوفي وكشف عن صدر رياضي برزت فيه عضلاته، أخذ خطافا وبدأ يعمل .

عندما رأى أنه انصرف تماما إلى عمله لم يتأخر رئيس العمل في أن يتركه ويعود إلى مكتبه.

استمر العامل الشاب ، حتى ساعة العشاء ، يسوط كتل الحديد المنصهر ، لكن بقدر الحماس الذي أولاه لعمله فقد أهمل تناول وجبة الإفطار– هذا الصباح– اللازمة لهذا المجهود الجسماني بدا سريعا مجهدا وفاقد القوى. مجهدا لدرجة لفتت نظر رئيس الفريق الذي قال له :

– أنت لم تخلق لهذا العمل يا بني من الأفضل أن تطلب على الفور تغيير القسم.

اعترض "**شوارتز**" . إنه ليس سوى إجهاد طارئ! يستطيع أن يقوم بسوط الحديد كأي عمل آخر!

لم يتأخر رئيس الفريق في إبلاغ تقريره، واستدعي الشاب على الفور إلى مكتب المهندس الرئيس.

فحص هذا الشخص أوراقه وهز رأسه، وسأله مستجوبا :

– هل كنت مسوط حديد في "**بروكلين**" ؟

خفض "**شوارتز**" عينيه مرتبكا.

قال :

– أرى جيدا أنه يجب أن أعترف. كنت موظفا في سكب الحديد في قوالب ، وأملا في رفع مرتبي أردت محاولة العمل في تسويط الحديد.

أجاب المهندس وهو يرفع كتفيه :

– أنتم جميعا متشابهون. في سن الخامسة والعشرين، تريد أن تعرف ما يعرفه رجل في الخامسة والثلاثين بشكل متخصص! هل أنت سباك (عامل يشرف على صهر الحديد في الأفران) ماهر؟

– كنت أشغل الدرجة الأولى منذ شهرين.

– كان من الأفضل أن تبقى في هذه الحالة! هنا ستبدأ من الدرجة الثالثة. يمكنك أيضا أن تعتبر نفسك محظوظا لأنني سأسهل لك تغيير القسم !

كتب المهندس بعض الكلمات على إذن مرور وقال :

– رد القطعة المعدنية الخاصة بك، اخرج من القسم على الفور واذهب إلى قطاع (و)

مكتب المهندس الرئيس. لقد أخبرته.

نفس الإجراءات التي أوقفت "**شوارتز**" على باب القطاع(ك) استقبلته عند القطاع(و) هناك كما في الصباح سألوه وأدخلوه ووجهوه إلى رئيس الورشة الذي أدخله صالة المسبك، لكن في هذا المكان كان العمل أكثر هدوءا ونمطية.

قال له الرئيس:

- إنها ليست سوى ورشة صغيرة لسبك القطع، عمال الدرجة الأولى فقط هم الذين يقبلون في صالات السبك للمدافع الكبيرة.

الورشة الصغيرة لاتبلغ أقل من مائة وخمسين مترا طولا وستين عرضا. يجب من وجهة تقدير "**شوارتز**" تسخين-على الأقل- ستمائة قالب موضوعة أربعة- ثمانية أو اثني عشر وفقا لمساحتها في الأفران الجانبية القوالب المهيأة لاستقبال الفولاذ المنصهر موضوعة في محور الورشة في قاع خندق أوسط. على كل جانب من الخندق خط حديدي يحمل رافعة متحركة تعمل عند الحاجة في نقل الأوزان الثقيلة كما في قاعات التسويط، في طرف ما ينتهي خط سكة حديد يحمل كتل الفولاذ المنصهر، والآخر يحمل المدافع التي تخرج من القالب.

الأعمال التي رآها "**شوارتز**" وصلت إلى درجة كبيرة من الإتقان. حان الوقت لإجراء عملية الصب في القوالب، أعطى جرس إنذار الإشارة لكل مراقبي الانصهار. على الفور بخطى متساوية وقوية ومحسوبة، عمال من نفس الحجم يحملون على الأكتاف قطبا حديديا أفقيا جاءوا اثنين اثنين يقفون أمام كل فرن.

ضابط مزود بصفارة، يحمل في يده ميقاتا يعد الثواني، وقف بالقرب من القالب في مكان يتوسط كل الأفران العاملة. عند كل جانب قنوات مغطاة بالحديد تتقارب وهي تنزل نحو منحدرات لطيفة حتى حوض على شكل قمع موضعه مباشرة فوق القالب، أعطى الرئيس صفارة على الفور، تم تعليق قالب سحب من النار بواسطة كماشة على القطب الحديدي الذي يحمله العاملان الواقفان أمام الفرن الأول، أطلقت الصفارة صفيرا آخر وراح الرجلان يفرغان محتوى قالبهما في القناة المتصلة. ثم ألقيا

بالقالب الحاوي الملتهب في وعاء .

بدون انقطاع ، وعلى فترات محسوبة بدقة حتى تتم عملية سكب الفولاذ المنصهر بشكل منتظم ودقيق تصرفت الفرق الأخرى تباعا بنفس الطريقة كانت الدقة مذهلة ، في الثانية العاشرة لآخر حركة ، كان القالب الأخير فارغا وألقي به في الوعاء . هذا العمل الممتاز يبدو على الأحرى نتيجة ميكنة عمياء. نظام غير مرن صارم، قوة التعود وقدرة قياس موسيقى صنعت هذه المعجزة.

بدا "**شوارتز**" معتادا على هذا المشهد. كون ثنائيا سريعا مع عامل في نفس حجمه وعرف أنه عامل جيد، في نهاية اليوم، وعده رئيس الفريق بتقدم سريع .

هو، بمجرد خروجه في الساعة السابعة مساء من القسم والباب الخارجي ذهب ليأخذ حقيبته من الفندق. تبع أحد الطرق الخارجية ووصل إلى مجمع سكني كان قد لاحظ وجوده في الصباح وجد مكانا للإقامة بسهولة لدى سيدة شجاعة تستقبل نزلاء للإقامة.

لكن لم يره أحد، هذا العامل الشاب الذي ذهب بعد العشاء حبس نفسه في غرفته، أخرج من جيبه قطعة فولاذ التقطها بدون شك من صالة تسويط الفولاذ ، وجزءا آخر التقطه من القسم (و) ثم فحصهما باهتمام لامثيل له تحت ضوء مصباح مدخن.

أخذ من حقيبته على الفور كراسة كبيرة وقلب صفحاتها المملوءة بالملاحظات، رموز، وحسابات وكتب الآتي بفرنسية جيدة ، ولكن لمزيد من الحرص بلغة مشفرة هو وحده يعرف رموزها .

" ١٠ نوفمبر (تشرين الثاني) "**ستالستاد**"- لايوجد شيء خاص في طريقة التسويط ما لم يكن اختيار درجتي حرارة مختلفتين ومنخفضتين بشكل تقريبي للتسخين الأول وإعادة التسخين وفقا للقوانين التي وضعها "**شرنوف**" . أما بالنسبة لصب الفولاذ في قوالب فإنه يتم وفقا لطريقة (كراب). ولكن بنظام حركة حقا يثير الإعجاب . هذه الدقة في العمل هي القوة الألمانية الكبرى . إنها تنبع من الإحساس الموسيقي الفطري في الجنس الساكسوني. لايستطيع الإنجليز أبدا الوصول إلى هذا الإتقان: ينقصهم الحس السمعي ما لم يكن النظام. يستطيع الفرنسيون الوصول إلى

ذلك بسهولة وهم أول الراقصين في العالم. حتى الآن. إذن لايوجد شيء غامض في النجاح الملحوظ لهذه الصناعة، عينات الحديد الخام التي أخذتها من الجبل مماثلة للحديد الجيد الذي لدينا، عينات الفحم الحجري جيدة جدا بكل تأكيد ومن نوعية معدنية بشكل كبير ولكن ليس بها ما هو غير طبيعي .

ليس هناك من شك أن صناعة "**شولتز**" تولي اهتماما خاصا لتخليص المواد الأولية من كل الشوائب ولاتستخدمها إلا في أقصى حالات نقائها ، ولكن هنا أيضا نتيجة سهل تحقيقها لايبقى إذن، لنضع أيدينا على كل عناصر المسألة، أن نحلل تكوين هذه الأرض الصلبة المصنوع منها القوالب وقنوات سكب الفولاذ المنصهر، أن نعرف هذا الشيء، وفرق العمل المنتظمة بشكل متوافق ، لا أدري لماذا لانفعل ما يقومون بعمله هنا! مع كل ذلك لم أر سوى قسمين، وهناك على الأقل أربعة وعشرون دون حساب النظام المركزي، إدارة التخطيط والتصميم ، المكتب السري! ماذا يمكن أن يفعلوا في هذا الكهف؟ ما الذي يخشاه أصدقاؤنا بعد تهديدات هر "**شولتز**" عندما حصل على ميراثه؟

عند علامات الاستفهام هذه ، أحس "**شوارتز**" بالإجهاد، بدل الملابس واندس في سريره الصغير غير المريح كما الأسرة الألمانية، أشعل غليونه وأخذ يقرأ كتابا قديما ، ولكن تفكيره في مكان آخر وحلقات الدخان ذي الرائحة تتتابع كأنه يقول:

"تباً . . تباً . . تباً . . تباً . ."

انتهى به الأمر بأن وضع كتابه وبقي مفكرا وقتا طويلا كأنه غارق في حل مسألة صعبة.

صاح فجأة :

" آه ! لقد اكتشفت سر هر "**شولتز**" . خاصة ما يستطيع أن يفكر فيه ضد "**فرانس ڤيل**".

"نام **شوارتز**" وهو ينطق باسم الدكتور "**سارازان**" ولكن أثناء نومه كان اسم "**چان**" الابنة الصغرى هو الذي يتردد على شفتيه . ذكرى الفتاة الصغيرة مازالت في مخيلته

على الرغم من أن "**چان**"، قد أصبحت الآن آنسة شابة . هذه الظاهرة تفسر بسهولة من خلال القوانين الطبيعية لترابط الأفكار: فكرة الدكتور تحتوي على الفتاة ترابط بالتقارب. كذلك عندما استيقظ **شوارتز**" أو "**مارسيل بروكمان**" كان اسم "**چان**" مازال على شفتيه. لم يندهش من ذلك ورأى في هذا برهانا جديدا لتفوق المبادئ النفسية لـ"**ستيوارت ميل**".

الفصل السادس

آبار (البرشت)

السيدة "**بويه**" المرأة الطيبة التي استضافت "**مارسيل بروكمان**"، سويسرية المولد، أرملة أحد عمال المنجم الذي قتل منذ أربع سنوات في إحدى هذه الكوارث الأرضية التي تجعل من حياة مستخرجي الفحم معركة في كل هذه اللحظات . يقدم لها المصنع راتبا بسيطا سنويا يبلغ ثلاثين دولارا، تضيف إليه العائد الضئيل من تأجير الغرفة المؤثثة والراتب الذي يحضره لها كل أحد ابنها الصغير "**كارل**" .

على الرغم من أنه في الثالثة عشرة، كان "**كارل**" عاملا في منجم الفحم ليفتح ويغلق أثناء مرور عربات الفحم ، إحدى تلك الأبواب الهوائية المرتبطة بتهوية الورش بأن يجعل التيار يتبع الاتجاه المحدد .

المنزل الذي تؤجره والدته بعيد جدا عن آبار "**البرشت**" حتى إنه لايستطيع الرجوع كل مساء للمنزل ، قدموا له بشكل إضافي عملا ليلا في قاع المنجم نفسه ، عهد إليه حراسة ورعاية ستة أحصنة في الإسطبل الموجود تحت الأرض عندما يصعد السائس إلى الخارج .

إن حياة "**كارل**" كلها تقريبا تمضي إذن تحت سطح الأرض في النهار، يعمل خفيرا بالقرب من باب الهواء، في الليل ينام فوق القش بالقرب من الأحصنة، فقط صباح الأحد يعود إلى النور ويستطيع لبضع ساعات أن ينعم بالحياة المشتركة مع بني الإنسان . الشمس ، السماء الزرقاء وابتسامة الأم .

كما يستطيع المرء أن يتخيل ، بعد أسبوع مماثل ، عندما يخرج من البئر ، لا يكون مظهره مثل مظهر شاب " متأنق" . إنه يبدو على الأرجح مثل عفريت قصص الساحرات ، أو منظف المداخن ، أو رجل زنجي كذلك كانت السيدة "**بويه**" تكرس ساعة طويلة لتنظيفه بالماء الساخن والصابون ثم تلبسه ملابس جيدة خضراء حاكتها من حلة كانت لأبيه أخذتها من أعماق دولابها ومن هذه اللحظة حتى المساء لا تكف عن التطلع

لولدها في إعجاب وتجده الأكثر جمالا في العالم.

بعد أن تخلص من آثار الفحم ، لم يكن "**كـــارل**" قبيحا حقا . فشعره أشقر وحريري،عيناه زرقاوان وعذبتان تتوافقان مع بشرته ناصعة البياض، ولكن حجمه كان صغيرا بالنسبة لسنه ، هذه الحياة بدون شمس جعلته مصابا بالأنيميا مثل الخس بدون شك إن عداد كرات الدم الذي اخترعه الدكتور "**ســارازان**" إذا عمل على دماء عامل المنجم الصغير ، لأظهر كمية غير كافية تماما من الصفائح الدموية.

أخلاقيا ، كان طفلا صامتا ، هادئا عنده نزعة اعتداد بالنفس منحتها إياه الإحساس بالطفولة المستمرة، وعاد العمل المنتظم والإحساس بالرضا عند قهر الصعاب، هذه النزعة توجد عند كل عمال المناجم بدون استثناء لنفس الأسباب .

سعادته الكبرى هي أن يجلس بالقرب من والدته إلى الطاولة المربعة التي تشغل وسط الصالة ويضع فوق ورق مقوى مجموعة حشرات أحضرها من تحت الأرض ، الجو الدافئ والمتساوي للمناجم في طبيعتها الخاصة، التي لايعرفها جيدا المهتمون بالطبيعة ، مثل الجدران الرطبة من الفحم الحجري لها طبيعتها الغريبة من الرغوة المخضرة ، فطريات غير معروفة . هذا ما لاحظه المهندس "**مولسمول**" المولع بعلم الحشرات ، لقد وعد "**كارل**" بقطعة نقود معدنية لكل نوع جديد يستطيع "**كارل**" أن يحضر منه عينة . هدف ذهبي جعل الصبي في البداية يتفحص بعناية كل أركان المنجم وشيئا فشيئا كون مجموعة الآن، فهو يبحث لحسابه الخاص عن الحشرات بالإضافة إلى ذلك، لم تتحدد هوايته بجمع العناكب والحشرات. شرع أثناء تواجده وحيدا في إقامة علاقة صداقة مع اثنين من الخفافيش ومع فأر كبير . إلى حد أنه اعتقد أن هذه الحيوانات الثلاثة هي الحيوانات الأكثر ذكاء في العالم أكثر من الأحصنة ذات الذيل الحريري الطويل والشعر اللامع والتي لايتكلم عنها "**كارل**" إلا بإعجاب .

كان هناك "**بليـر آتول**" أكبر حصان في الإسطبل ، فيلسوف عجوز، نزل منذ ستة أعوام خمسمائة متر تحت مستوى البحر ، لم ير منذ هذه اللحظة النور ، إنه الآن شبه أعمى. لكن كيف يعرف جيدا كهفه الأرضي ! كيف يعرف أن يستدير يمينا أو يسارا

وهو يسحب عربته ، دون أن تزل قدمه أبدا! كيف يتوقف ويقف أمام أبواب الهواء ليترك المسافة اللازمة لفتحها!

كيف يصهل بحب صباحا ومساء في اللحظة التي يقدم له فيها الطعام . إنه طيب جدا وحنون .

قال "**كارل**" :

– إني أؤكد لك يا أمي أنه يقبلني على خدي عندما يقترب مني هل تعلمين أيضا أن "**بلير آتول**" لديه ساعة في رأسه بدونه لانعرف طوال الأسبوع الليل من النهار!

هكذا يثرثر الطفل ، وتسمعه السيدة "**بويه**" بإعجاب ، إنها تحب "**بلير آتول**" هي الأخرى، بكل الحب الذي يحمله له ولدها ، ولاتترك فرصة أن ترسل إليه قطعة سكر ، كانت تود أن تذهب لترى هذا الخادم العجوز الذي عرفه زوجها وفي نفس الوقت تزور المكان التعس حيث وجدت جثة المسكين "**بويه**"، سوداء مثل الحبر، بعد الانفجار ، لكن لايسمح للنساء بالدخول في المخيم، وكان عليها أن تكتفي بالوصف الذي يقدمه لها ابنها.

آه! إنها تعرف جيدا هذا المنجم ، هذا الثقب الأسود الذي لم يعد منه زوجها ! كم من المرات انتظرت بالقرب من هذه الفوهة الفاغرة التي يبلغ قطرها ٥٤٠سم تبعت بنظرها الحوائط الطويلة من الأحجار المقطعة ، القفص المزدوج من خشب البلوط . تنزلق فيها العربات المربوطة بالحبال ، الآلة البخارية ، كبينة الملاحظ، والباقي ! كم من المرات استمدت الدفء من الجمرات المشتعلة دائما حيث يجفف العمال ملابسهم ويشعل المدخنون الذين لايصبرون غلايينهم! كم كانت معتادة على صوت وحركة هذا الباب الملعون! العمال الذين يفكون العربات المحملة بالفحم ، الذين يربطون العربات والذين يجرونها، هم السائقون، لقد رأتهم مرارا وهم يعملون!

ما استطاعت أن تراه والذي رأته جيدا بعيني قلبها هو ما يحدث عندما تبتلع العربة حاملة كومة بشرية من العمال، قديما كان من بينهم زوجها ، والآن ابنها الوحيد.

سمعت أصواتهم وضحكاتهم تتباعد في الأعماق ، تضعف ثم تكف . تبعت

بأفكارها هذا القفص الذي يغوص في قناة ضيقة رأسية لخمسمائة ولستمائة متر- أربعة أضعاف ارتفاع الهرم الأكبر!.. ترى القفص يصل أخيرا إلى نهاية الرحلة، والرجال يسرعون لوضع أرجلهم على الأرض!

ها هم ينتشرون في المدينة الأرضية، واحد إلى اليسار والآخر إلى اليمين ، الذين يسحبون العربات يذهبون إلى عرباتهم ، عمال التضريب يحمل كل واحد معوله ، ويتجهون نحو كتل الفحم، والآخرون يهتمون بوضع مواد صلبة مكان كنز الفحم الذي تم استخراجه ، الخشابون يبنون الدعامات التي تدعم الورش ، المرممون يصلحون الطرق ويضعون الخطوط الحديدية والبناءون يجمعون القباء.. ورشة مركزية تبدأ من البئر وتصل إلى ما يشبه الشارع الواسع إلى بئر أخرى تبتعد من ثلاثة إلى أربعة كيلو مترات . من هنا تذهب في أقسام ورش ثانوية، وعلى الخطوط المتوازية ورش من الدرجة الثالثة.

بين هذه الطرق مقامة حوائط أعمدة مكونة من الفحم نفسه أو الصخور. كل ذلك منتظم ، مربع ، صلب ، وأسود!..

في هذه الشوارع المتساوية في عرضها وطولها ، جيش كامل من عمال المناجم أجسادهم نصف عارية يتحركون ، يتحدثون، يعملون في ضوء مصابيحهم. هذا ما تتخيله السيدة "**بويه**" عندما تكون وحيدة، حالمة في ركن مدفأتها.

في هذا التشابك من الورش، إنها ترى واحدة، واحدة تعرفها أكثر من الأخريات ، هي التي يفتح ويغلق بابها ابنها "**كارل**" .

حلَّ المساء، صعدت مجموعة عمل الصباح لتحل محلها مجموعة العمل الليلية ولكن ابنها لا يأخذ مكانه في العربة. إنه يذهب إلى الإسطبل حيث يجد عزيزه "**بلير آتول**" يقدم له عشاءه من التبن ثم يأكل بدوره عشاءه البارد الذي ينزل له من أعلى، يلعب لحظات مع فأره السمين، الساكن عند قدميه، وصديقيه الخفاشين اللذين يطيران في ثقل حوله وينام فوق السرير المصنوع من القش.

كيف تعرف جيدا كل ذلك السيدة "**بويه**" وكيف تفهم الوصف الذي يسوقه إليها "**كارل**" !

– تعرفين يا أمي ما الذي قاله لي بالأمس سيدي المهندس "**مولسمول**" ؟

قال إنه إذا أجبت على أسئلة الهندسة التي طرحها علي ذات يوم فسيأخذني لأمسك سلسلة قياس المساحة عندما يضع خططه في المنجم بالبوصلة. يبدو أنهم سيحفرون موقع عمل ليتم ربطه ببئر "**ويبر**" وهو يسعى جاهدا ليحفر بدقة!

صاحت السيدة "**بويه**" سعيدة.

– حقا ! قال السيد المهندس "**مولسمول**" هذا!

تخيلت بالفعل ابنها ممسكا بالسلسلة بطول موقع العمل بينما يمسك المهندس كراسة ملاحظاته ويدون الأرقام وعيناه مثبتتان على البوصلة يحدد اتجاه الحفر.

استطرد "**كارل**" :

– للأسف ، ليس هناك من أعرفه ليشرح لي مالا أفهمه في الهندسة وأخشى ألا أحسن الإجابة.

هنا ، "**مارسيل**" الذي يدخن في صمت في ركن المدفأة ، بصفته ساكنا في المنزل هذا أعطاه الحق في أن ينخرط في الحديث ليقول للطفل:

– إذا أردت أن تقول لي ما يزعجك ربما أستطيع شرحه لك.

قالت السيدة "**بويه**" في عدم تصديق:

– أنت؟

أجاب "**مارسيل**" :

– بدون شك هل تعتقدين أنني لا أتعلم شيئا في دروس المساء حيث أذهب بانتظام بعد العشاء؟ المدرس ممتن جدا مني.

ذهب "**مارسيل**" إلى غرفته ليحضر كراسة من الورق الأبيض وجلس بالقرب من الولد الصغير ، وسأله عما أوقفه في مسألته وشرحه له بكل وضوح حتى انبهر "**كارل**" ولم يجد أدنى صعوبة.

منذ هذا اليوم، ازداد تقدير السيدة "**بويه**" لنزيلها ، وشعر "**مارسيل**" بالود تجاه

الصديق الصغير.

واستمر يتظاهر بأنه عامل مثالي حتى ترقى إلى الدرجة الثانية ثم إلى الدرجة الأولى. في كل صباح في الساعة السابعة يكون أمام الباب وكل مساء بعد العشاء يذهب إلى دروس المهندس "**تروبنر**" هندسة ، جبر ، رسم أشكال وماكينات، يفعل كل شيء بنفس الحماس، تقدمه كان سريعا حتى أذهل المعلم. بعد شهرين من دخوله مصنع "**شولتز**" ، عرف العامل الشاب بأنه واحد من النوابغ الأكثر تفتحا ليس فقط في القطاع (و) ولكن في مدينة الفولاذ بأسرها . تقرير رئيسه المباشر أرسل في نهاية الأشهر الثلاثة وحمل هذا التقدير:

" "**شوارتز**" – "**جون**" ، ٢٦ سنة، عامل صهر من الدرجة الأولى، يجب أن أشير لهذا الشخص للإدارة المركزية بأنه "فذ" لديه معرفة نظرية ، مهارية عملية وفكر مخترع متميز للغاية" .

على الرغم من ذلك كان لابد من وجود ظروف غير عادية حتى يلفت "**مارسيل**" انتباه رؤسائه، لم يتأخر هذا الظرف في الحدوث كما يحدث دائما عاجلا أم آجلا : للأسف يحدث ذلك في الظروف الأكثر مأساوية.

صباح يوم الأحد، اندهش "**مارسيل**" أن سمع دقات العاشرة دون أن يظهر صديقه الصغير "**كارل**" ، نزل وسأل السيدة "**بويه**" إذا كانت تعرف سبب التأخير. وجدها قلقة. كان لابد أن يكون "**كارل**" في المنزل منذ ساعتين على الأقل. عندما رأى قلقها تطوع "**مارسيل**" بأن يذهب ليعرف الأخبار وذهب في اتجاه بئر "**البرشت**" .

في الطريق ، قابل عدة عمال ولم يفته أن يسألهم إذا كانوا قد رأوا صبيا صغيرا، ثم بعد أن استقبل إجابة بالنفي وتبادل معهم التحية:

وهي (خروج سعيد) هذه هي تحية عمال المناجم الألمان ، تابع "**مارسيل**" طريقه وصل نحو الحادية عشرة بئر "**البرشت**" . المشهد ليس مزدحما ولاحيويا كما في وسط الأسبوع ، بالكاد إذا كانت (صانعة قبعات)– هذا هو الاسم الذي يطلقه عمال المناجم مزاحا على السيدات منتقيات الفحم تتحدث إلى الملاحظ الذي يظل يعمل حتى في

يوم إجازته عند فم المنجم.

سأل "**مارسيل**" هذا الموظف:

– هل رأيت الصغير "**كارل بويه**" رقم ٤١٩٠٢ يخرج؟

نظر الرجل إلى قائمته وهز رأسه:

– هل هناك مخرج آخر للبئر؟

أجاب الملاحظ:

– لا ، هذا هو الوحيد ، الفتحة التي ستفتح من الشمال لم تنته بعد .

– الصبي أسفل إذن؟

– بالتأكيد ، وهذا في الحقيقة مثير للدهشة بما أن يوم الأحد، لايبقى سوى الخمسة حراس الخاصين.

– هل تستطيع النزول لتخبرني؟

– ليس بدون إذن.

قالت صانعة القبعات:

– قد يكون هناك حادث.

–لايوجد حادث ممكن في يوم الأحد.

استطرد "**مارسيل**" :

– لكن في النهاية، يجب أن أعرف ماذا حدث للطفل!

– تحدث إلى رئيس العمل في هذا المكتب .. إذا كان موجودا .

رئيس العمل، في ملابس يوم الأحد، قميص بكولة لحسن الحظ أنه تأخر. كان رجلا ذكيا وبه إنسانية.شارك "**مارسيل**" قلقه قال:

– سنرى ماذا حدث؟

أمر الميكانيكي بأن يتأهب لينزل هو والعامل الشاب إلى المنجم .

سأل "**مارسيل**" :

– أليس لديكم أجهزة "**جالبير**"؟ قد تصبح مفيدة..

– معك حق . لا أحد يعرف أبدا ماذا حدث في قاع هذه الحفرة.

أخذ رئيس العمل من الدولاب خزانين من الزنك . إنها خزانات هواء مضغوطة تتصل بالشفتين عن طريق أنبوبتين من الكاوتشوك توضع فتحتهما بين الأسنان . تملأ بواسطة نفخ خاص تسد الأنف ببنسة من الخشب، وبذلك يمكن إدخال كمية من الهواء بأمان في أي جو يصعب فيه التنفس.

انتهت الاستعدادات ، تعلق "**مارسيل**" ورئيس العمل بالعربة وانطلق الحبل من البكرة وبدآ النزول. استخدما مصباحين كهربائيين صغيرين للإضاءة وتبادلا الحديث أثناء انغماسهما في أعماق الأرض.

قال رئيس العمل:

– أنت لست من هؤلاء الذين لهم نظرة باردة في عيونهم. رأيت أناسا لايستطيعون أن يقرروا النزول أو البقاء مقوسي الظهر كالأرانب في قاع العربة!

أجاب "**مارسيل**" :

– حقا؟ هذا لايهمني على الإطلاق . لقد نزلت مرة أو اثنتين في المناجم. وصلا إلى قاع البئر . كانت الخيل موجودة وبدا عليها القلق .

كانت حقيبة "**كارل**" المصنوعة من القماش معلقة في أحد المسامير في ركن صغير ، بجانب منقلة كتاب الهندسة.

لاحظ "**مارسيل**" على الفور أن مصباحه ليس هنا برهان آخر على أن الطفل يجب أن يكون في المنجم .

قال رئيس العمل:

– ربما يكون قد أخذه انهيار ولكن هذا الاحتمال ضعيف.

أجاب الحارس:

– أو ربما يكون قد ذهب يبحث عن الحشرات قبل أن يخرج، إن هذا شغف حقيقي بالنسبة له !

أكد صبي الإسطبل الذي وصل في هذه الأثناء هذا الافتراض لقد شاهد "**كارل**"

يرحل قبل الساعة السابعة ومعه مصباحه. لم يبق هناك إذن سوى بدء البحث المنتظم. تم استدعاء الحراس الآخرين بالصفارة ليتقاسموا العمل على خريطة كبيرة للمنجم، كل يمسك مصباحه وبدأ البحث.

خلال ساعتين كانت كل أجزاء المنجم قد مُسحت وتواجد الرجال السبعة في نقطة اللقاء لم يكن هناك في أي مكان أثر لانهيار، ولم يكن هناك أيضا أثر لـ"**كارل**" .

مال رئيس العمال ، ربما لشعوره بشهية متزايدة، إلى الرأي القائل بأن ربما قد انفلت الطفل دون أن يلاحظ أحد وهو الآن موجود في المنزل بكل بساطة، ولكن "**مارسيل**" اقتنع بالعكس وأصر على عمل بحث آخر .

قال وهو يشير على الخريطة إلى منطقة محددة عليها تفاصيل مثل التي يرسمها علماء الجغرافيا لتمييز نهايات القارات المقوسة.

أجاب رئيس العمل.

– إنه النطاق المهجور بسبب هشاشة الطبقة المستغلة .

استطرد "**مارسيل**" بلهجة بها أمر شعر بها الآخرون .

– هناك نطاق مهجور ؟.. إذن هنا هو المكان الذي يجب البحث فيه.

لم يتأخروا في الوصول إلى فتحة السراديب التي بدا على جدرانها أنها مهجورة منذ عدة سنوات ، تبعوا السراديب دون أن يجدوا فيها ما يثير الشك حتى استوقفهم "**مارسيل**" قائلا:

– ألا تشعرون بثقل ودوار بالرأس؟

أجاب رفاقه:

– نعم هذا صحيح .

– بالنسبة لي أشعر منذ لحظة بدوار يوجد هنا بالتأكيد حامض كربوني !

سأل رئيس العمل.

هل تسمحون لي بإشعال ثقاب؟

– أشعل يابني لاتقلق.

أخـرج "**مـارسـيل**" من جيبه علبة صغيرة وأشعل الثقاب وانـخفض وقرب الشعلة من الأرض وانطفأت على الفور قال :

– كنت متأكدا من ذلك . . الغاز أثقل من الهواء بقي قريبا من الأرض . .

لايجب أن نبقى هنا . أتحدث عن هؤلاء الذين ليس لديهم جهاز "**جالبير**" إذا أردت ياسيدي أن نستكمل البحث بمفردنا .

اتفقوا على هذا النحو، "**مارسيل**" ورئيس العمل أمسك كل منهما بين أسنانه فتحة خزانات الهواء ووضعوا المشبك على أنفيهما ودخلا في متابعة السراديب القديمة .

بعد ربع ساعة خرجا ليجددا الهواء الموجود بخزانات الهواء ثم عادا من جديد .

في المرة الثالثة كلل جهدهم بالنجاح، ضوء صغير مائل للزرقة، ضوء مصباح كهربائي، بدا لهما بعيدا في الظلام . جريا إليه . .

أسفل الحائط الرطب تمدد ساكنا وباردا المسكين "**كـارل**" . شفتاه زرقاوان، وجهه محتقن ونبضه ساكن كل ذلك يفسر ما حدث .

أراد أن يأخذ شيئا من الأرض، نزل إلى أسفل واختنق بمعنى الكلمة بغاز حمض الكربون .

باءت كل الجهود بالفشل لإعادته إلى الحياة ، لقد مات منذ أربع أو خمس ساعات .

اليوم التالي، كان هناك نعش جديد في "**ستالستاد**" وأصبحت السيدة "**بويه**" أرملة لابنها كما كانت أرملة لزوجها .

الفصل السابع

المبنى المركزي

تقرير واضح للدكتور "**اشترناش**" . رئيس الأطباء في قسم بئر "**البرشت**" جاء به أن سبب وفاة "**كارل بويه**" رقم ٤١٩٠٢ ثلاث عشرة سنة، يعمل بالسرداب ٢٢٨ هو الإسفكسيا (الاختناق) الناتج عن استنشاق الجهاز التنفسي جرعة كبيرة من حمض الكربون .

تقرير آخر ليس أقل وضوحا من المهندس "**مولسمول**" عرض ضرورة أن يتضمن نظام التهوية في النطاق (ب في الخريطة ١٥ حيث يتسرب إلى السراديب غاز ثقيل بطريقة بطيئة ولايشعر بها .

أخيرا، ملاحظة لنفس المهمة موقعة للسلطات المختصة بها شهادة رئيس العمل "**راير**" والعامل "**چون شوارتز**" .

بعد ثمانية أو عشرة أيام عندما ذهب العامل الشاب ليأخذ القطعة المعدنية الخاصة به عند الحارس وجد أمرا موقعا بشأنه .

– المدعو "**شوارتز**" يقدم نفسه اليوم الساعة العاشرة في مكتب المدير العام. المبنى المركزي باب وطريق (أ).

فكر "**مارسيل**" :

– أخيرا ! لقد أخذوا وقتا طويلا ، ولكن ها هم!

لقد عرف الآن ، في محادثاته مع الزملاء ونزهاته يوم الأحد حول "**ستالستاد**" النظام العام للمدينة حتى عرف أن السماح بدخول المبنى المركزي ليس شائعا. لقد انتشرت الأساطير حول هذا الأمر.

قيل إن دخلاء أرادوا اقتحام هذا الباب المحصن ولم يستطيعوا الظهور مرة أخرى وإن العمال والموظفين قبل أن يستطيعوا دخوله يخضعون لسلسلة من الطقوس الماسونية

ويجبرون على القسم ألا يكشفوا عن أي شيء حدث ويعاقبوا بدون رحمة بالموت بعد محاكمة سرية إذا أخلُّوا بقسمهم .. طريق سكة حديد أرضي يصل هذا المذبح بالخط المركزي.. قطارات ليل توصِّل زائرين مجهولين.. تقام هناك أحيانا اجتماعات عليا حيث تحضرها شخصيات غامضة.

بعد أن استمع "**مارسيل**" إلى كل هذه الأقاويل كان يعرف أنها في مجملها التعبير الشعبي لشيء حقيقي تماما .

الصعوبة القصوى لدخول القطاع المركزي من كل العمال الذين يعرفهم– وكان له أصدقاء بين عمال منجم الحديد ، كعمال منجم الفحم وعمال الأفران الحدادين– ولا واحد منهم عبر الباب (أ).

بفضول إذن وسعادة خاصة يتقدم إلى هذا الباب في الساعة المحددة يستطيع أن يتأكد من أن الاحتياطات صارمة.

في البداية انتظر "**مارسيل**" . هناك رجلان يرتديان زيا موحدا رمادي اللون يضعان خنجرا على الجنب ومسدسا في الوسط متواجدان في مقر الحارس ، هذا المقر يشبه مقر راهبة بوابة في دير له بابان ، واحد في الخارج، الآخر في الداخل ، لايفتحان أبدا في نفس الوقت.

استسلم "**مارسيل**" للفحص دون إبداء أي اندهاش.

ثم عصب عينيه بإحكام بمنديل أبيض بواسطة الحارسين، أخذاه على الفور وسارا به بدون كلمة.

بعد ميلين أو ثلاثة ، صعدوا سلما ، فُتح باب وأغلق سمح لـ"**مارسيل**" أن يرفع العصابة.

وجد نفسه عندئذ في قاعة بسيطة ، مؤثثة ببعض الكراسي، لوحة سوداء . ولوح عريض للرسم عليه كل الأدوات اللازمة للرسم.

يصل ضوء النهار بواسطة نوافذ عالية لها زجاج مصقول.

فجأة، دخل شخصان لهما هيئة جامعية القاعة.

قال أحدهما:

– يشار إليك بأنك شخص متميز ، سنختبرك ونرى إذا أمكن قبولك في قسم التصميم ، هل أنت مستعد للإجابة على أسئلتنا؟

أفصح "**مارسيل**" بتواضع عن استعداده للاختبار.

ألقى عليه الممتحنان في تتابع أسئلة في الكيمياء ، الهندسة والجبر. نال العامل رضاهما في كل المسائل لوضوح ودقة إجاباته ، الأشكال التي رسمها على اللوح كانت واضحة. وأنيقة ، معادلاته اصطفت بنظام في صفوف متساوية مثل خطوط فريق جيش من الصفوة. واحدة من براهينه كانت متميزة وجديدة بالنسبة للممتحنين حتى إنهما أبديا له دهشتهما وسألاه أين تعلم ذلك؟

– في "**شافوز**" ، في بلدي ، في مدرستي الابتدائية.

– تبدو رساما جيدا.

– إنه أفضل ما أجيد.

قال أحد الممتحنين للآخر:

– التعليم في "**سويسرا**" متميز جدا!

قال وهو يعطي الطالب آلة بخارية معقدة:

سنتركك ساعتين لتنفيذ هذا الرسم ، إذا نفذت ذلك جيدا ستقبل بتقدير: " جيد تماما ومتميز.. "

بقي "**مارسيل**" بمفرده وشرع في العمل بحماس.

عندما دخل الممتحنان بعد انتهاء الوقت المحدد أبديا انبهارهما برسمه وأضافا إلى التقرير" ليس لدينا رسام آخر له مهارة مماثلة. "

عاد العامل الشاب عندئذ إلى الحارسين الرماديين وبنفس المراسم أي بعينين معصوبتين قاداه إلى مكتب المدير العام. قال له هذا الشخص:

– أنت مقدَّم إلى إحدى ورش الرسم في قسم التصميم هل أنت مستعد للخضوع لشروط القانون؟

قال "**مارسيل**" :

- أنا لا أعرفها ، لكنني أعتقد أنها مقبولة.

ها هي :

١- أنت ملزم طوال فترة تعيينك بالإقامة في القسم نفسه. لاتستطيع أن تخرج منه إلا بإذن خاص بشكل افتراضي تماما.

٢- أنت خاضع للنظام العسكري ، ويجب الطاعة المطلقة، في المشقة العسكرية لرؤسائك. من ناحية أخرى ، أنت مثيل لضابط في جيش نشيط وتستطيع بالتدرج المنتظم أن تصل لأعلى الدرجات.

٣- تتعهد بقَسم ألا تكشف أبدا لأحد ما تراه في القسم الذي تدخله.

٤- تفتح مراسلاتك بواسطة رؤسائك في الدخول كما في الخروج ويجب أن تقتصر على عائلتك .

فكر "**مارسيل**" :

باختصار أنا في سجن.

ثم أجاب ببساطة :

- تبدو لي هذه الشروط عادلة وأنا مستعد للخضوع لها.

- حسن ارفع يدك.. استعد للقَسم.. لقد عينت رساما في المرسم رقم ر٤ . سيوفر لك مكان للإقامة، بالنسبة للوجبات لديك هنا مقصف من الدرجة الأولى.. ألم تحضر أمتعتك؟

- لا يا سيدي ، كنت أجهل لماذا تريدونني فتركتها عند مضيفتي .

- سنحضرها لك لايجب أن تخرج.

فكر "**مارسيل**" :

- لقد أحسنت صنعا بأن كتبت مذكراتي بلغة مشفرة.

قبل نهاية اليوم كان "**مارسيل**" في حجرة جميلة في الطابق الرابع لمبنى مفتوح على فناء واسع استطاع أن يكوّن فكرة أولى عن حياته الجديدة.

لم تبد تعسة جدا كما تخيلها في البداية. رفاقه- تعرف عليهم في المطعم- كانوا بوجه

عام هادئين مثل كل رجال العمل، لمحاولة إدخال البهجة قليلا، ذلك لأن البهجة تنقص هذه الحياة الأوتوماتيكية ، العديد منهم كونوا فيما بينهم فرقة موسيقية كانوا يعزفون كل مساء قدرا من الموسيقى الجيدة ، مكتبة، وصالون قراءة أهدت إلى العقل منبعا قيما للأمور العلمية في أوقات الفراغ النادرة ، دروس خاصة يقدمها أساتذة من الدرجة الأولى كانت إجبارية لكل الموظفين بالإضافة إلى أنهم كانوا يخضعون إلى امتحانات ومسابقات كثيرة . لكن كان ينقص هذا المكان الضيق الحرية والهواء كانت الكلية مع الكثير من الصرامة واستغلال الرجال. أثقل المناخ المحيط العقول التي شيدت حولها قلاعا من النظام الحديدي.

انتهى الشتاء في هذه الأعمال، التي استسلم لها "**مارسيل**" قلبا وقالبا،مثابرته وإتقانه لرسومه والتقدم المدهش لتعلمه، لوحظ من كل مدرسيه وكل ممتحنيه مما جعل له صيتا ذائعا في وقت قليل بين هؤلاء الرجال العاملين. باتفاق عام كان الرسام الأكثر مهارة والأكثر عبقرية والأكثر خصوبة في موارده، إذا كانت هناك صعوبة . يلجأ إليه. الرؤساء أنفسهم يلجأون لخبرته، باحترام ينتزعه الاستحقاق من الغيرة.

لكن إذا كان الرجل الشاب، عند وصوله إلى قلب قسم التصميم، ظن أنه سينفذ إلى الأسرار، فذلك بعيد عن الحسبان.

حياته منغلقة في قفص حديدي قطره ثلاثمائة متر يحيط قطاع المبنى المركزي الذي يوجد به فكريا، يستطيع نشاطه ويجب أن يمتد إلى أقصى فروع صناعة المعادن. عمليا كانت محدودة في رسومات ماكينات البخار.

كان ينشئها بكل مقاييسها وقواها، كل أنواع الصناعات والاستخدامات، لسفن الحرب، ماكينات الطباعة، لكنه لم يخرج من هذا التخصص قسم العمل المدفوع لأقصى حد يحيطه في إطاره.

بعد مرور أربعة أشهر في القسم (أ)، لم يعرف "**مارسيل**" بعد مجموع أعمال مدينة الفولاذ مثلما قبل أن يدخلها، بالإضافة إلى ذلك لقد جمع بعض المعلومات العامة عن النظام حيث لم يكن– على الرغم من استحقاقه– مجرد ترس تافه. كان يعرف أن مركز نسيج العنكبوت الذي تمثله"**ستالستاد**" كان برج الثور نوعا من الإنشاء هائل الضخامة

يسيطر على كل المباني المجاورة. علم أيضا ، دائما من الروايات الأسطورية في المقصف، أن المسكن الشخصي لـ هر "**شولتز**" يوجد في قاعدة هذا البرج ومكتبه السري في المركز أضافوا أن هذه الصالة المقوسة مؤمنة ضد أي خطر للحريق مصفحة داخليا وخارجيا ، وهي مغلقة بنظام أبواب من الفولاذ لها أقفال مصفحة، جديرة بأن توجد في بنك مهدد. كان الرأي العام أن هر "**شولتز**" يعمل لإتمام آلة حرب رهيبة ، لها أثر غير مسبق ومن المقدر لها أن تضمن لـ"**ألمانيا**" السيطرة على العالم.

ليصل إلى اللغز، حاول "**مارسيل**" دون جدوى أن يقلب في رأسه الخطط الأكثر جرأة للتنكر . اضطر للاعتراف بأن ليس لديه شيء يمكن تطبيقه . هذه الصفوف من الجدران المظلمة يحرسها خبراء أقوياء يواجهون أي محاولة للتخطي. هل يصل إلى إجبارهم إلى نقطة محددة، ماذا سيرى؟ تفاصيل، دائما تفاصيل لايوجد الكل أبدا.

لايهم . لقد أقسم ألا يستسلم، لن يستسلم . إذا كان يلزمه عشر سنوات ، فسينتظر عشر سنوات ، لكن ستحين الساعة حيث سيكون هذا السر له! يجب أن يحدث ذلك.

إن "**فرانس فيل**" تزدهر، مدينة سعيدة حيث المؤسسات الخيرة تعود بالنفع على الجميع . لم يشك "**مارسيل**" في أن أمامه مثل هذا النجاح للجنس اللاتيني، قرر "**شولتز**" أكثر من أي وقت آخر تنفيذ تهديده . مدينة الفولاذ نفسها والأعمال التي تشكل هدفا لها هي نفسها البرهان.

مضت عدة شهور على هذا النحو. في أحد أيام شهر مارس (آذار) جاء "**مارسيل**" للمرة الألف يجدد لنفسه قسم (انيبال) عندما أخبره أحد الحراس أن المدير العام يريد التحدث إليه.

قال له الموظف الكبير:

– تلقيت من هر"**شولتز**" أمرا بأن أرسل إليه أفضل الرسامين إنه أنت. احزم أشياءك لتمر بالدائرة الداخلية ، لقد ترقيت لرتبة ملازم أول.

هكذا في اللحظة نفسها التي تسلل إليه فيها اليأس من النجاح النتيجة المنطقية

والطبيعية لعمل بطولي قدمت له هذا القبول المرغوب فيه تماما! لم يشعر "**مارسيل**" بمثل هذه السعادة حتى إنه لم يستطع أن يحتوي التعبير الجسدي عن هذه السعادة.

استطرد المدير:

– أنا سعيد بأن أخبرك بخبر طيب كهذا. لاأستطيع إلا أن أشجعك على المضي في طريقك بشجاعة المستقبل الباهر أمامك. هيا ياسيدي.

أخيرا، بعد اختبار طويل، لاح لـ"**مارسيل**" الهدف الذي أقسم على الوصول إليه!

جمع في حقيبته كل ملابسه، تابع الرجال بملابسهم الرمادية عبر الباب الأخير وهو المدخل الوحيد المفتوح على الطريق (أ) الذي كان من الممكن أن يبقى ممنوعا عليه لفترة أطول، كل ذلك بدا لحظات بالنسبة لـ"**مارسيل**".

كان أسفل برج الثور المنيع الذي لم يرَ سوى رأسه المرتفع حتى السحب.

المشهد الماثل أمامه لم يكن متوقعا على الإطلاق. من الممكن تخيل رجل يُنقل فجأة وبدون مقدمات، من وسط مرسم أوربي صاخب إلى هذه الغابة البكر في النطاق الحار. كانت هذه هي المفاجأة التي تنتظر "**مارسيل**" وسط "**ستالستاد**". إنها غابة بكر تشبه كثيرا الغابات التي يصفها الكُتاب الكبار. في نفس الوقت فإن حديقة هر "**شولتز**" هي أفضل الحدائق، نخيل فارع الطول، أشجار الموز كثيفة جدا، ونبات الصبار الذي يكون مجموعات كثيفة النباتات المتسلقة تلتف بشكل أنيق حول سيقان نباتات الأوكاليبتوس، تتعرج في تموجات خضراء أو تسقط في شلالات غزيرة النباتات مزدهرة ومزهرة بشكل غير طبيعي في الأرض. الأناناس والجوافة ناضجة بالقرب من البرتقال، الطيور وعصافير الجنة تستعرض في الهواء الطلق ريشها. في النهاية حتى الجو كان استوائيا مثل النباتات.

بحث "**مارسيل**" بعينيه عن الحواجز الزجاجية أو مولدات الحرارة التي تصنع هذه المعجزة واندهش بأنه لم يرَ غير السماء الزرقاء. بقي لحظة دهشا.

ثم تذكر أن هناك– وليس بعيدا من هذا المكان– منجما في احتراق مستمر وأدرك أن هير "**شولتز**" استخدم بعبقرية هذا الكنز من الحرارة الأرضية ليستغلها من خلال أنابيب معدنية ليحصل على حرارة ثابتة.

لكن هذا التفسير الذي ساقه لنفسه الألزاسي الشاب لم يمنع عينيه من الانبهار والإعجاب بخضرة الحشائش ، وأنفه من استنشاق –بسعادة– الشذا الذي يملأ الجو. بعد ستة أشهر لم ير خلالها قشة من الحشائش، فهو يعوض ما فاته. قاده ممر رملي إلى منحدر خفيف بالخلف توجد كتلة ضخمة لمبنى مربع كأنه بمثابة القاعدة لـ"**برج الثور**" تحت أعمدة الواجهة ، لاحظ "**مارسيل**" وجود ستة أو ثمانية خدم في ملابس خدم حمراء وسويسريا يرتدي قبعة مثلثة، لاحظ بين الأعمدة أعمدة من البرنز في نهايتها مصباح، وعندما صعد الدرجة . نهره صوت بلطف محذرا بأن خط السكة الحديد الأرضي يمر تحت قدميه.

نودي على "**مارسيل**" ودخل على الفور ممرا كان بالفعل متحف نُحت دون أن يجد الوقت ليتوقف فيه ، عبر صالونا أحمر، ثم صالونا أسود ووصل إلى صالون أصفر حيث تركه الخادم بمفرده خمس دقائق . أخيرا أدخلوه مكتبا رائعا أخضر.

هر "**شولتز**" بنفسه يدخن غليونا طويلا بجانب كوب من البيرة ، مما يشكل وسط هذا الترف بقعة من الوحل على حذاء ملمع.

دون أن ينهض ، دون حتى أن يلفت رأسه ، قال ملك الفولاذ ببرود وببساطة. :

– أنت الرسام!

– نعم ياسيدي.

– رأيت رسوماتك. إنها جيدة جدا . لكن ألا تعرف إذن سوى صنع آلات البخار؟

– لم يطلب مني أبدا شيء آخر .

– هل تعرف قليلا في باب القذائف؟

– لقد درسته في أوقات فراغي ولإرضاء هوايتي.

دخلت هذه الإجابة قلب هر "**شولتز**" . عندئذ نظر إلى موظفه .

" إذن هل تتحمل رسم مدفع معي؟. سنرى كيف ستتصرف آه ستحل مكان هذا الغبي "**سوهان**" الذي قتل هذا الصباح وهو يتعامل مع الديناميت!.. الحيوان كان سيضيعنا جميعا. يجب الاعتراف بأن عدم الاحترام هذا لم يبد مغضبا كثيرا في فم هر "**شولتز**" .

الفصل الثامن

كهف التنين

القارئ الذي تتبع تقدم ثروة الألزاسي الشاب ربما لن يندهش أن يجده قد استقر تماما، بعد بضعة أسابيع لدى هر "**شولتز**" أصبح الاثنان لايفترقان. العمل ، الوجبات، النزهات في الحديقة، تدخين الغليون الطويل مع أقداح البيرة- يفعلون كل شيء مشتركا. لم يقابل أستاذ جامعة "**إيينا**" السابق أبدا معاونا دخل قلبه ، يفهمه من مجرد نطقه نصف الكلمة، يعرف أيضا أن يستخدم سريعا معطياته النظرية.

لم يكن "**مارسيل**" فقط جديرا بالتفوق في كل فروع المهنة، كان أيضا الرفيق الأكثر سحرا ، العامل الأكثر مثابرة ، المخترع الأكثر خصوبة وتواضعا.

بُهر به هر "**شولتز**" عشر مرات في اليوم يقول :

-" ياله من لقاء ! ياله من جوهرة هذا الصبي!" في الحقيقة لقد نفذ "**مارسيل**" من أول نظرة إلى معرفة الطبيعة الشخصية الصعبة لرئيسه. عرف أن طبيعته المسيطرة هي الأنانية العظمى ، آكلة كل شيء، يعبر عنها ظاهريا بغرور قاس كان ملتزما بأن ينظم على ذلك سلوكه في كل اللحظات .

في أيام قليلة ، عرف الألزاسي الشاب مفاتيح هذا الشخص جيدا حتى وصل إلى أن يلعب بـ"**شولتز**" كأنه يلعب البيانو.

خطته ارتكزت ببساطة على أن يصعد بقدر الإمكان تفوقه ولكن بطريقة تترك دائما للآخر فرصة إثبات تفوقه عليه . مثلا عندما ينهي رسما ، وينجزه بإتقان – ولكنه يترك به خطأ سهلا ليصحح ، فيلاحظ البروفيسور بحماس على الفور.

عندما يكون لديه فكرة نظرية ، يحاول أن يجعلها تولد خلال الحديث بطريقة تجعل هر "**شولتز**" يظن أنه هو صاحبها . أحيانا يذهب أبعد من ذلك بأن يقول مثلا:

– لقد رسمت تصميم هذه السفينة ذات القاطعة المتحركة الذي طلبته مني.

يجيب هر "**شولتز**" الذي لم يفكر أبدا في شيء مماثل.

– أنا؟

– نعم! لقد نسيت إذن؟.. قاطعة متحركة تترك في جنب العدو قذيفة تنفجر بعد فترة زمنية تبلغ ثلاث دقائق.

– ليس لدي أي ذكرى، لدي الكثير من الأفكار في رأسي ويعتقد هر "**شولتز**" في ضميره أنه الأب لهذا الاختراع الجديد.

ربما على أية حال، كان نصف مغفل في هذه التصرفات. في قرارة نفسه من المحتمل أنه يشعر بأن "**مارسيل**" أقوى منه. لكن من خلال اختمار الغامض للخواطر في العقول البشرية، يكتفي ببساطة بأن "يبدو" متفوقا، وخاصة بأن يوهم مساعده بذلك.

أحيانا يقول لنفسه كاشفا بضحكة صامتة الاثنتين وثلاثين قطعة "**دومينو**".

" هل هو غبي، بكل هذا الفكر، هذا الصياح".

من ناحية أخرى قدم له غروره نوعا من التعزية. إنه الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يحقق هذه الأحلام الصناعية!.. هذه الأحلام ليس لها قيمة إلا به ومن أجله!.. "**مارسيل**" في النهاية ليس سوى ترس من التروس في نظامه الذي خلقه هر "**شولتز**".

بعد خمسة أشهر من الإقامة في "**برج الثور**" لم يعرف "**مارسيل**" الكثير عن المبنى المركزي. في الحقيقة لقد أصبحت شكوكه شبه مؤكده. لقد اقتنع أكثر فأكثر أن هر "**شولتز**" لديه هدف آخر غير هدف الكسب. طبيعة اهتماماته، وصناعته نفسها تؤكد نظرية أنه أداة حرب ما جديدة.

لكن حل اللغز بقي دائما غامضا.

حتى إن "**مارسيل**" قال لنفسه إنه لن يحصل عليه إلا من خلال كارثة وهي لم تحدث، لذلك قرر أن يحدثها بنفسه.

كان ذلك مساء٥ سبتمبر (أيلول) في نهاية العشاء قبل عام كان قد اكتشف جثة صديقه الصغير "**كارل**" في بئر "**البرشت**" بعيدا، غطى الشتاء الطويل والقاسي لـ"**سويسرا**" الأمريكية القرية بمعطفه الأبيض. لكن في حديقة "**ستالستاد**" كانت

درجة الحرارة دافئة مثلما في يونيو (حزيران)وينصهر الثلج قبل أن يلمس الأرض ويسقط على هيئة ندى بدلا من أن يسقط في كتل.

قال هر "**شولتز**" الذي لم تغير ملايين البيجوم من وجباته المفضلة.

– هذا السوسيس بالخضراوات لذيذ.

أجاب "**مارسيل**" الذي يأكل بشجاعة كل مساء هذا الطبق الذي لايحبه .

– لذيذ.

اعتراضات معدته انتهت بأن جعلته يقرر محاولة الاختبار الذي يفكر فيه .

قال هر "**شولتز**" متنهدا .

– أسأل نفسي ، كيف تستطيع الشعوب التي ليس لديها سوسيس أو خضراوات أو بيرة أن تتحمل الحياة؟

أجاب "**مارسيل**" :

– لابد أن الحياة بالنسبة لهم عذاب طويل. سيكون حقا للإنسانية أن يجمعوا في "**ڤاترلاند**" .

صاح ملك الفولاذ:

– أيه ! ايه.. سيحدث ذلك.. سيحدث ذلك! هنا نحن مقيمون بالفعل في قلب "**أمريكا**" . دعنا نأخذ جزيرة أو اثنتين بالقرب من "**اليابان**"، وسترى مدى التقدم الذي سنحرزه حول العالم.

أحضر الخادم الغليون، نظف هر "**شولتز**" غليونه وأشعله. اختار "**مارسيل**" هذه اللحظة اليومية من الاسترخاء التام.

قال بعد برهة صمت :

– يجب أن أقول، أنا لا أؤمن بهذا الغزو!

سأل هر "**شولتز**" الذي لم يعد قريبا من موضع الحديث:

– أي غزو؟

– غزو "الألمان " للعالم.

ظن البروفيسور السابق أنه لم يسمع جيدا .

– لا تؤمن بغزو الألمان للعالم؟

– لا .

– آه . . إني شغوف لمعرفة أسباب شكك.

– بكل بساطة لأن صناع المدافع الفرنسيين سيتفوقون وسيهزمونكم. السويسريون أبناء وطني الذين يعرفونهم جيدا لديهم فكرة ثابتة بأن فرنسيا على علم يساوي اثنين . ١٨٧٠ درسا سيرد ضد هؤلاء الذين قدموه ، لأحد يشك في ذلك في بلدي الصغير يا سيدي، وإذا كان يجب القول بكل شيء فهذا رأي أقوى الرجال في "**إنجلترا**" .

أطلق "**مارسيل**" هذه الكلمات بنبرة باردة جافة وقاطعة مما ضاعف أثرها على ملك الفولاذ.

بقي هر "**شولتز**" دهشا ، جاحظ العينين ، غير مصدق. صعدت الدماء إلى وجهه بقوة حتى خشي الرجل الشاب أن يكون قد ذهب بعيدا. رأى أن ضحيته على الرغم من كظم غيظها لم تمت بعد ، استطرد :

– نعم ، هذا مثير للضجر أن نستنتج ذلك ولكن الأمر كذلك إذا كان أعداؤنا لا يصدرون صوتا فإنهم يعملون. هل تعتقد أنهم لم يتعلموا شيئا منذ الحرب؟ بينما تُرفع كمية المدافع بغباء. تأكد أنهم يعدون شيئا جديدا ستعرفه في أقرب فرصة!

تمتم هر "**شولتز**" :

– جديد ! جديد! نحن نفعل جديدا أيضا ياسيدي.

– آه لنتحدث عنه ! نحن نعيد صنع ما صنعه السابقون مستخدمين الفولاذ بدلا من البرنز، هذا كل شيء ! نحن نضاعف أعداد القطع!

أجاب هر "**شولتز**" :

– نضاعف ! في الحقيقة نحن نفعل ما هو أفضل من المضاعفة!

استطرد "**مارسيل**" :

– لكن في الواقع نحن لسنا سوى منتحلين . هل تريدني أن أخبرك بالحقيقة؟ موهبة

الاختراع تنقصنا . لن نجد شيئا وسيجد الفرنسيون .

كن متأكدا من ذلك.

استعاد هر "**شولتز**" هدوءا ظاهريا على الرغم من ذلك أظهر ارتعاش شفتيه، والشحوب الذي تبع احمرار وجهه المشاعر التي تتحرك بداخله .

هل يجب الوصول إلى هذه الدرجة من الإهانة؟ يُسمى "**شولتز**" أن يكون السيد المطلق لأكثر مصنع لصناعة المدافع في العالم بأسره ، يرى عند قدميه الملوك والبرلمانيين، ويسمع من رسام سويسري أنه يفتقر إلى الاختراع وأن المدفعية الفرنسية تتفوق عليه!.. وذلك في الوقت الذي لديه بالقرب منه ، خلف هذا الحائط المصفح ما يصهر ألف مرة هذا الوقح، يغلق فمه ، ينفي براهينه الغبية؟ لا ، ليس من المعقول تحمُّل هذه الإهانة.

نهض هر "**شولتز**" بحركة مفاجئة نتج عنها كسر الغليون. ثم نظر إلى "**مارسيل**" نظرة مفعمة بالسخرية وصرَّ أسنانه، قال له أو على الأحرى همس بتلك الكلمات:

"اتبعني يا سيدي، سأطلعك إذا كنت أنا هر "**شولتز**" أفتقر إلى الاختراع!" .

لقد لعب "**مارسيل**" لعبة كبيرة ربح بفضل المفاجأة التي أحدثتها لغته الجريئة وغير المتوقعة بفضل العنف والغرور القوي الموجود داخل البروفيسور السابق، أكثر من الحرص كان "**شولتز**" متعطشا للكشف عن سره، وكأن رغما عنه ، دخل مكتبه، أغلق الباب بإحكام سار مباشرة إلى المكتبة ولمس إحدى اللوحات ، على الفور ظهرت في الحائط فتحة متوارية خلف صفوف الكتب. كان هذا هو المدخل لممر ضيق يؤدي من خلال سلم من الصخر، إلى أسفل "**برج الثور**"نفسه.

هناك، فتح باب من شجر البلوط بفعل مفتاح صغير لايتركه أبدا صاحب المكان، ظهر باب آخر مقفول بقفل كالذي تقفل به الخزائن كوَّن هر "**شولتز**" الكلمة ، وفتح المصراعين الحديديين الثقيلين المسلحين بأجهزة انفجار معقدة . بدون شك دفع "**مارسيل**" فضوله المهني إلى فحص هذه الأجهزة ولكن لم يمهله مرشده الفرصة.

وُجد الاثنان أمام باب ثالث بدون قفل واضح. فتح بدفعة بسيطة، إنه يعمل– فحسب– وفقا لقوانين محددة.

بعد عبور الأبواب الثلاثة السابقة تسلق هر "**شولتز**" ورفيقه مائتي درجة في السلم الحديدي ووصلا إلى قمة "**برج الثور**" الذي يطل على كل أنحاء مدينة "**ستالستاد**" .

على هذا البرج من (الجرانيت)، شديد الصلابة أمام كل اختبار نوع ما من المعقل به عدة فتحات ، في وسط المعقل تمدد مدفع من الفولاذ .

قال البروفيسور الذي لم ينبس بكلمة طوال الطريق: " ها هو ! " .

كانت أكبر قطعة ثابتة رآها "**مارسيل**" . لابد أنها تزن على الأقل ثلاثمائة ألف كيلو جرام . قطر فوهتها متر ونصف صاعدة على ركيزة من الفولاذ وتتحرك على شرائط من نفس المعدن، من الممكن أن يشغلها طفل بما أن حركتها سهلة بفضل نظام العجلات المسننة. سوستة تعويضية وضعت خلف الركيزة لتمنع الرجوع أو لكي تنتج رد فعل معادل وتعيد القطعة بشكل أوتوماتيكي إلى وضعها الأول بعد كل ضربة .

سأل "**مارسيل**" الذي لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بهذه الآلة :

– وما قدرتها على الضرب؟

– على بعد عشرين ألف متر يمكننا أن نثقب صحفة معدنية تبلغ أربعين مترا بسهولة كأنها شطيرة زبد .

– ما حجم إنتاجها إذن؟

صاح "**شولتز**" متحمسا:

– إنتاجها! آه قلت منذ قليل إن عبقريتنا المقلدة لم تحصل على شيء سوى مضاعفة إنتاج المدافع الحالية! إيه حسنا، هذا المدفع، سأرسل منه مع قاذف بعيد المدى إلى عشرة أماكن صاح "**مارسيل**" :

– عشرة أماكن ! عشرة أماكن! ما البارود الجديد الذي ستستخدمه إذن؟

أجاب هر "**شولتز**" :

– أوه أستطيع أن أقول لك كل شيء الآن. لم يعد هناك ضرر من أن أكشف لك عن أسراري! انتهى عصر البارود كبير الحبات.

ذلك الذي أستخدمه هو قطن البارود الذي له قوة انتشار تفوق قوة انتشار البارود

العادي أربع مرات، قوة أستطيع أن أجعلها خمسة أمثال بإضافة ثمانية أعشار وزنه نترات البوتاس!

قال "**مارسيل**" :

– لكن أي قطعة حربية حتى لو كانت مصنوعة من أفضل أنواع الفولاذ لن تستطيع أن تتحمل هذا الانفجار الكبير. مدفعك بعد ثلاث أو أربع أو خمس ضربات سيتدمر تماما ويصبح غير صالح للاستعمال .

– لن يطلق سوى ضربة واحدة ، هذه الضربة تكفي .

– سيساوي كثيرا!

– مليون ، بما أن هذا هو سعر القطعة!

– ضربة بمليون!

– لا يهم بما أنها تدمر مليارا!

صاح "مارسيل" :

– مليار!

تماسك حتى لايظهر الرعب الممزوج بالإعجاب الذي أوحت إليه به آلة التدمير العملاقة هذه ثم أضاف:

– إنها بالتأكيد قطعة مدفعية مدهشة ورائعة، لكنها على الرغم من كل هذه الجودة تبرهن على نظريتي ، لايوجد إتقان ، يوجد تقليد، ولايوجد اختراع!" .

أجاب هر "**شولتز**" وهو يرفع كتفيه:

– لايوجد اختراع! أردد إنني ليس لدي أسرار من أجلك! تعال إذن غادر ملك الفولاذ ورفيقه المعقل وهبطا إلى الطابق السفلي هناك شاهدا عددا من الأشياء الممددة على شكل أسطواني.

قال هر "**شولتز**" :

– هذه قنابلنا.

هذه المرة، اضطر "**مارسيل**" إلى الاعتراف بأنه لم ير ما يشبه هذه الأشياء، كانت

أنابيب ضخمة طولها متران وقطرها متر يغطيها من الخارج قميص من الرصاص ، مقفولة من الخلف بصفحة من الفولاذ، ومن الأمام بطرف من الفولاذ المقوس.

– ما الطبيعة الخاصة لهذه القنابل؟ هذا ما لم يكشف عنه شكلها. من الممكن فقط توقع وجود مادة انفجار رهيبة في جوانبها تتعدى كل ما عرف في هذا النوع.

سأل هر "**شولتز**" عندما رأى أن "**مارسيل**" صامت.

– ألا تخمن؟

– حقا لا يا سيدي! لماذا تكون القنبلة طويلة جدا وثقيلة جدا كما يبدو؟

أجاب هر "**شولتز**" :

– المظهر خدَّاع والوزن لايختلف عن وزن قنبلة عادية من نفس العيار.

هيا يجب أن أقول لك كل شيء!.. قنبلة لها صمامة من الزجاج، مغطاة بخشب البلوط محمولة بالضغط الداخلي حمض الكربون السائل .

السقوط يحتم انفجار الغلاف وتحول السائل إلى حالته الغازية النتيجة برد يصل إلى حوالي مائة درجة تحت الصفر في كل النطاق المجاور . في نفس الوقت امتزاج كمية ضخمة من غاز حمض الكربون بالهواء المحيط . كل كائن حي يوجد على بعد ثلاثين مترا من مركز الانفجار يتجمد ويختنق في نفس الوقت. أقول : ثلاثين مترا كقاعدة حسابية، ولكن يمتد المفعول حقا أبعد بكثير ربما إلى مائة أو مائتي مترا!

عامل مساعد آخر؛ إن غاز الكربون يبقى طويلا في الطبقات السفلى للجو بسبب أن وزنه أثقل من الهواء، يحتفظ النطاق الخطر بخواصه عدة ساعات بعد الانفجار، وكل كائن يحاول أن يدخله هالك لامحالة . إنها ضربة مدفع ذات أثر شديد وباق !.. أيضا مع نظامي لايوجد جرحى، بل لاشيء غير الموتى.

أظهر هر "**شولتز**" سعادة غامرة باختراعه ، عادت إليه سعادته احمر وجهه من الغرور وكشف عن أسنانه كلها .

أضاف:

انظر من هنا ، عدد كاف من أفواه النار تحيط بمدينة. لنفترض أن أرضا تبلغ ألف

هكتار ، مائة بطارية لعشر قطع موضوعة بشكل مناسب . نفترض بعد ذلك أن كل قطعنا في موقعها ، والجو هادئ وملائم تُعطى الإشارة العامة بسلك كهربائي .. في دقيقة ، لن يبقى كائن حي على سطح الألف هكتار . محيط حقيقي من حمض الكربون سيغرق المدينة! لقد واتتني هذه الفكرة منذ عام عندما كنت أقرأ التقرير الطبي لحادث موت عامل المنجم الصغير في بئر "**البرشت**" ! كان الإيحاء الأول للفكر في "**نابلس**" عندما كنت أزور كهف "**الكلب**" (١) لكن كان يلزمني هذا الحدث الأخير ليعطي لفكرتي ماهيتها النهائية . فهمت المبدأ، أليس كذلك؟ محيط اصطناعي من حمض الكربون الصافي! قادر على جعل الهواء غير صالح للتنفس.

لم ينبس "**مارسيل**" بكلمة لقد تحول تماما إلى الصمت.

شعر هر "**شولتز**" بانتصاره قال:

– لايوجد سوى تفصيل واحد يضايقني.

سأل "**مارسيل**" :

– ما هو إذن؟

– هو أنني لم أنجح في إبطال صوت الانفجار، فهذا يعد تشابها بين قنبلتي والقنبلة الهمجية ، فكر قليلا ماذا سيحدث إذا حصلت على ضربة بدون صوت! هذا الموت المفاجئ ، يحصد في صمت مائة ألف رجل مرة واحدة في ليلة هادئة!

بدا هر "**شولتز**" حالما ، ربما حلمه ليس إلا غرقا عميقا في بحر كبريائه كان سيمتد لو لم يقاطعه "**مارسيل**" :

– حسن جدا يا سيدي! لكن ألف مدفع من هذا النوع، فهذا وقت ومال.

– المال؟ سيعود إلينا! الوقت؟.. الوقت لنا!

وفي الحقيقة، هذا الجرماني الأخير في مدرسته يصدق ما يقول.

أجاب "**مارسيل**" :

– ليكن ياسيدي. قنبلتك ، المحملة بحمض الكربون ليست جديدة بشكل مطلق بما أنها مشتقة من القذائف المسببة للاختناق.

---

(١) كهف الكلب يوجد في ضواحي مدينة (نابلس)، ويأخذ إسمه من الطبيعة المثيرة للفضول لجوّه الخانق للكب او اي حيوان يسير على أربع، ولكن لا يصيب الإنسان بالضرر – ترجع هذه الخاصية إلى انّ هناك طبقة من غاز الكربون في جوّه بالقرب من سطح الأرض.

والمعروف منذ سنوات لكن ربما تفوق قوتها على التدمير أنا لا أنكر ذلك. فقط..

– فقط؟

– إنها خفيفة جدا بالنسبة لحجمها وهي لاتذهب بعيدا.

أجاب هر "**شولتز**" مبتسما:

– لم تصمم لتذهب بعيدا . ولكن!

أضاف مشيرا لقنبلة أخرى:

– ها هي قذيفة ذات شق . إنها مليئة ، تحتوي على مائة مدفع صغير مخزنة واحدة في الأخرى مثل الأنابيب تقذف بدورها قنابل صغيرة مزودة بمواد حارقة، إنها مثل البطارية التي تقذف في الفضاء وتستطيع أن تحمل الحريق أو الموت لمدينة بأكملها بتغطيتها بنيران لا تنطفئ! لها الوزن المطلوب لتعبر عشرة أماكن ، ستُجرى التجربة بحيث يستطيع المكذبون أن يلمسوا بأصابعهم مائة ألف جثة ممددة على الأرض.

في هذه اللحظة لمعت أسنان هر "**شولتز**" بشكل أثار رغبة "**مارسيل**" في أن يحطمها ، لكنه استطاع أن يسيطر على نفسه إن ما يريد سماعه لم ينته بعد.

– قلت لك منذ قليل إن تجربة قاطعة ستُجرى .

صاح "**مارسيل**" :

– كيف ؟ أين؟

– كيف ؟ بإحدى هذه القنابل التي ستعبر سلسلة (شلالات موتت) تقذف من أحد المدافع!.. أين؟ مدينة تبتعد عنا عشرة أماكن، لاتنتظر هذه الضربة وإذا كانت تتوقعها لن تستطيع صد النتائج الصاعقة! نحن في الخامس من سبتمبر (أيلول) !.. إنه حسن ، يوم الثالث عشر ، في الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة مساء ستختفي "**فرانس ڤيل**" من فوق الأرض الأمريكية! ستشتعل فيها النيران!

سيطلق البروفيسور "**شولتز**" كل نيرانه.

هذه المرة، بهذا التصريح غير المتوقع تدفقت الدماء في قلب "**مارسيل**" . لحسن الحظ أن هر "**شولتز**" لم يلاحظ شيئا .

استطرد غير مبال :

– هكذا ! نحن نفعل هنا عكس ما يفعله المخترعون في "**فرانس ڤيل**" . نحن نبحث عن سر تدمير حياة الإنسان وهم يبحثون عن وسيلة للرقي بها . لكن حكم على عملهم بالموت الذي زرعناه . على الرغم من ذلك كل له دوره في الطبيعة والدكتور "**سارازان**" عندما أسس المدينة المنعزلة وضع في متناولي دون أن يدري أروع حقل تجارب .

لم يستطع "**مارسيل**" أن يصدق ما سمعه. قال برعشة غير إرادية بدا أنها لفتت انتباه ملك الفولاذ :

– لكن سكان "**فرانس ڤيل**" لم يفعلوا لك شيئا يا سيدي!

ليس لديك، كما أعرف، أي سبب لتبحث عن الحرب معهم أجاب هر "**شولتز**" :

– عزيزي ، لديك في عقلك المنظم جيدا أصل لأفكار سالتيه (فرنسية قديمة) ستضايقك كثيرا إذا كنت ستعيش طويلا!

الحق، الخير، الشر، أشياء نسبية تماما ، لايوجد شيء مطلق إلا قوانين الطبيعة الكبرى. قانون المنافسة الحياتية موجود تماما مثل قانون الجاذبية . أن ترغب في التخلص منه شيء غير معقول.

أن تندمج فيه وتطيعه في الاتجاه الذي يشير به فهذا شيء عاقل وحكيم ولهذا سأدمر مدينة الدكتور "**سارازان**" بفضل مدفعي ، الخمسون ألف ألماني سيقضون بسهولة على المائة ألف حالم الذين يشكلون هناك مجموعة حُكم عليها بالفناء .

أدرك "**مارسيل**" عدم جدوى الحديث مع هر "**شولتز**" .

غادر الاثنان غرفة القنابل حيث أقفلت الأبواب ونزلا إلى غرفة الطعام.

بشكل طبيعي جدا رفع هر "**شولتز**" قدح البيرة إلى شفتيه، أخذ غليونا آخر بدلا من الذي كسره وتحدث إلى الخادم. سأله:

– "**أرمينيوس**" و "**سيجيمار**" هنا؟

– نعم ياسيدي.

– قل لهما أن يستعدا لسماع مناداتي .

عندما غادر الخادم غرفة الطعام ، استدار ملك الفولاذ نحو "**مارسيل**" ونظر إليه جيدا في وجهه.

لم يخفض هذا الأخير عينيه أمام هذه النظرة التي اتخذت قسوة حديدية .

قال :

– حقا ستنفذ هذا المشروع؟

– حقا.

– ربما كان يجب أن تحتفظ بسر خطتك.

أجاب هر "**شولتز**" :

– عزيزي ، أنت غير منطقي أبدا ، هذا ما سيجعلني أقل ندما على موتك شابا.

نهض "**مارسيل**" على إثر هذه الكلمات.

أضاف هر "**شولتز**" في برود:

– كيف لم تفهم أنني لاأتحدث أبدا عن مشروعاتي أمام هؤلاء الذين يستطيعون البوح بها؟

رنَّ الجرس ، ظهر عند باب الغرفة العملاقان "**أرمينيوس**" و"**سيجيمار**" قال هر "**شولتز**" :

– لقد أردت معرفة سري ، ها أنت تعرفه!.. لم يعد أمامك غير أن تموت.

لم يجب "**مارسيل**" .

استطرد هر "**شولتز**" :

– أنت ذكي جدا حتى تفترض أنني أستطيع أن أتركك تعيش الآن وأنت تعرف مشروعاتي ، سيكون هذا استخفافا لايغتفر سيكون غير منطقي. عظمة هدفي تمنعني من أن أفسد نجاحي من أجل حياة رجل– حتى لو كان رجلا مثلك ياعزيزي ، أقدر فيه بشكل خاص التنظيم الجيد لعقله. كذلك آسف حقا أن حركة كبرياء ساقتني بعيدا وتضعني الآن في موقف يحتم القضاء عليك . لكن يجب أن تفهم أن أمام المصالح التي وهبت نفسي لها لايوجد مكان للعاطفة ، أستطيع أن أقولها لك .

مات سلفك "**سوهان**" لأنه نفذ إلى سري وليس بسبب انفجار عبوة ديناميت!.. إنها قاعدة مطلقة يجب ألا تتغير! لاأستطيع أن أغير فيها شيئا.

نظر "**مارسيل**" إلى هر "**شولتز**" أدرك من صوته والعناد الحيواني لهذا الرأس الأصلع أنه قد ضاع. ولم يكلف نفسه عناء الاعتراض وسأل:

– متى سأموت وبأي ميتة؟

أجاب هر "**شولتز**" في هدوء:

– لاتقلق بالتفاصيل . ستموت ولكن بدون ألم. ذات صباح لن تستيقظ ،. هذا كل شيء.

بإشارة من ملك الفولاذ، أُخذ "**مارسيل**" وحُبس في غرفته حيث حرس الباب العملاقان...

لكن عندما أصبح بمفرده فكر مرتعشا من الضيق والغضب في الدكتور وأهله وأبناء وطنه وكل من يحبهم.

قال لنفسه :

– الموت الذي ينتظرني ليس شيئا ولكن الخطر الذي يهددهم كيف يتم منعه؟

الفصل التاسع

(ب. ب. ج)

تصاعدت خطورة الموقف ، ماذا يستطيع أن يفعل "**مارسيل**" وأصبحت ساعات عمره معدودة، الذي ربما يصل لليلته الأخيرة بعد غروب الشمس.

لم ينم لحظة– ليس خشية ألا يستيقظ كما أخبره هر"**شولتز**" لكن لأن فكره لايستطيع أن يترك "**فرانس ڤيل**" تحت وطأة هذه الكارثة الكبرى.

ردد على نفسه:

ماذا يحاول؟ يدمر المدفع؟ يدمر البرج الذي يحمله؟ وكيف أستطيع ؟ أهرب! وغرفتي يحرسها هذان التمثالان! كيف أستطيع قبل تاريخ ١٣ سبتمبر(أيلول) أن أغادر "**ستالستاد**" لكن ! إذا لم أستطع إنقاذ المدينة الغالية ، أستطيع على الأقل أن أنقذ سكانها ، أصل إليهم وأصيح فيهم .. اهربوا بدون تأخير ! أنتم مهددون بالهلاك بالنار، بالحديد! اهربوا جميعكم ثم ، ذهبت أفكار "**مارسيل**" في اتجاه آخر فكر :

– هذا البائس "**شولتز**" ! إذا قبلنا أنه بالغ في القوة المدمرة لقنابله وأنه لايستطيع أن يغطي المدينة بأكملها بنار لاتنطفئ من المؤكد أنه بضربة واحدة يستطيع أن يحرق جزءا كبيرا، إنها آلة مخيفة التي ابتكرها ، وعلى الرغم من المسافة التي تفصل المدينتين سيستطيع هذا المدفع أن يرسل قذائفه! سرعة مبدئية تفوق السرعة التي يحصل عليها حتى هنا عشرين مرة! شيء مثل عشرة آلاف مترا! لكن هذا تقريبا ثلث سرعة دوران الأرض حول نفسها! هل هذا ممكن إذن؟

نعم، نعم! .. مالم ينفجر مدفعه من الضربة الأولى...

ولن ينفجر لأنه مصنوع من معدن مقاوم للانفجار!

اللئيم يعرف تماما موضع "**فرانس ڤيل**" ! دون أن يخرج من ملاذه سيصوب مدفعه بدقة حسابية وكما قال :

ستسقط القنبلة في مركز المدينة نفسه ! كيف يخبر السكان التعساء ؟

لم يغلق "**مارسيل**" جفنه عندما ظهر نور الصبح غادر سريره لقد تمدد فوقه بدون جدوى طوال سهده.

قال لنفسه :

هيا، سيكون الليلة القادمة! هذا الجلاد يريد أن يوفر علي الألم ينتظر بدون شك حتى يستولي علي النعاس ! إذن .. لكن ما الميتة التي يحتفظ لي بها إذن؟

هل يفكر في قتلي عن طريق استنشاق غاز سام أثناء نومي؟ هل يسرِّب إلى غرفتي غاز حمض الكربون؟

هل يستخدم هذا الغاز في حالته السائلة التي يستخدمها في القنابل حيث يؤدي تحوله إلى الحالة الغازية إلى برد يصل إلى مائة درجة تحت الصفر! وفي اليوم التالي (بدلا مني) ، يجدون مومياء جافة ، متجمدة!

آه! البائس! إيه حسن ، ليجف قلبي ! إذا لزم الأمر، لتبرد حياتي في هذه الحرارة غير المحتملة لكن أصدقائي ، الدكتور "**سارازان**"، عائلته "**چان**" صغيرتي "**چان**" لينجوا! لهذا يجب أن أهرب . إذن سأهرب!

وهو ينطق هذه الكلمات الأخيرة وضع "**مارسيل**" بحركة تلقائية، يده على مقبض الباب على الرغم من أنه متأكد أنه محبوس في عرفته.

لدهشته ، فتح الباب استطاع أن ينزل كعادته إلى الحديقة حيث اعتاد على التنزه.

قال:

– آه! أنا محبوس في المبنى المركزي ولست محبوسا في غرفتي هذا سيئ بالفعل !

فقط ، بمجرد أن خرج "**مارسيل**" أدرك جيدا أنه مهما كان حرا ظاهريا فهو لايستطيع أن يخطو خطوة واحدة دون أن يلاحظه هذان الشخصان اللذان يجيبان على الاسمين التاريخيين أي قبل التاريخيين "**ارمنيوس**" و"**سيجيمار**" .

سأل نفسه كل مرة عندما يلتقي بهما في طريقه ، ماذا يمكن أن تكون وظيفة هذين التمثالين الضخمين اللذين يرتديان قبعتين رماديتين، لهما عنقا ثور. وجهاهما الحمراوان

اللذان يبرز فيهما شاربان كثيفان !

وظيفتهما يعرفها الآن ، إنهما منفذا الأعمال العليا لـ هر "**شولتز**" وهما (البودي جارد) الشخصيان له .

هذان العملاقان يراقبانه ، ينامان على باب حجرته، يلحقان بخطواته إذا خرج إلى الحديقة يضاف إلى زيهما مسدسان يؤكدان المراقبة .

مع هذا ، فهما صامتان كالسمكتين، أراد "**مارسيل**" بهدف دبلوماسي محادثتهما فلم يحصل إلا على نظرات متوحشة ، حتى عرض كوبا من البيرة الذي اعتقد أنه لايقاوم بقي عديم الفائدة ، بعد خمس عشرة ساعةمن الملاحظة ، لم يعرف عنهما سوى نقطة ضعف واحدة – الغليون .

هذه الآفة الوحيدة ، هل يستطيع "**مارسيل**" أن يستغلها؟ لم يعرف، يستطيع أن يتخيل ذلك، لقد أقسم على الهرب ولايجب أن يهمل شيئا يستطيع أن يوصله إلى الهرب . أقل حركة تمرد أو هرب ، كان "**مارسيل**" متأكدا أنه سيستقبل رصاصتين في رأسه . وجد نفسه وسط ثلاثة خطوط منيعة ، مصفوفة بثلاثة صفوف من الخفراء .

وفقا لعادته كطالب في المدرسة المركزية حوّل بشكل صحيح المشكلة إلى مسألة حسابية .

" رجل يحرسه عن قرب رجال أشداء، فرديا أكثر منه قوة وأكثر منه تسليحا . يجب أولا بالنسبة لهذا الرجل أن يهرب من يقظة هؤلاء الحراس . أن يصل إلى هذا الهدف . بقي أن يخرج من مكان قوي كل مخارجه مراقبة بقوة . .

مائة مرة، يكرر "**مارسيل**" لنفسه هذا السؤال ومائة مرة ينتهي إلى أن الأمر مستحيل .

أخيرا ، الخطورة القصوى للموقف هل ستمنح قدراته الابتكارية دفعة كبيرة؟ هل ستقرر الصدفة وحدها الخلاص؟ من الصعب قول ذلك .

مازال موجودا ، في اليوم التالي ، أثناء تنزهه في الحديقة توقفت عيناه عند شيء لفت نظره على الأرض .

إنه نبات حزين المظهر ورقته بيضاوية، حادة ، له وردات كبيرة حمراء على شكل رمش "**مارسيل**" الذي لم يمارس علم النبات إلا كهاوٍ أدرك أن في هذه الشجيرات الوصف

الفيزيائي لعائلة الباذنجانيات، قطف منها ورقة صغيرة ومضغها وهو يستكمل نزهته .

إنه لم يخطئ . سرعان ما شعر بثقل في أعضائه مصحوبا ببداية غثيان فعلم أن تحت يديه معملا طبيعيا من نبات ست الحسن أي أنشط أنواع المخدر.

دائما في تجول ، وصل إلى البحيرة الصناعية الصغيرة الممتدة نحو جنوب الحديقة لتغذي شلالا منقولا تماما عن شلال غابة "**بولونيا**" .

سأل "**مارسيل**" نفسه:

– أين تذهب إذن مياه هذا الشلال؟

إنه أولا في مجرى نهر الذي بعد أن مر بعدة انحناءات يختفي عند حدود الحديقة.

لابد أن يكون هناك مصب وفقا للظاهر، يذهب النهر إلى قنوات تحت الأرض التي تذهب لتروي السهل خارج "**ستالستاد**" .

وجد "**مارسيل**" هنا بابا للخروج. لم يكن بابا مضمونا ولكنه كان بابا.

اعترض صوت الحرص:

– وإذا كانت القنوات مسدودة ببوابات حديدية!

أجاب بصوت ساخر الصوت الذي يمليه القرارات المتهورة.

– من لا يخاطر بشيء لايجد شيئا! لم تصنع المبارد لصقل سدادات الزجاجات ، هناك منها أنواع ممتازة في المعمل.

في دقيقتين اتخذ "**مارسيل**" قراره . فكرة– ما يطلق عليها فكرة!– طرأت على ذهنه، فكرة غير محققة .

ربما، لكنه سيحاول تحقيقها ما لم يفاجئه الموت قبل ذلك.

عاد إلى الشجيرة ذات الورود الحمراء قطف ورقتين أو ثلاثا بطريقة لايستطيع معها أن يراه المراقبان .

ثم بعد أن دخل غرفته جفف الورقات أمام النار. فركها بين يديه وخلطها مع الدخان.

خلال الأيام الستة التي تتابعت كان "**مارسيل**" لدهشته يستيقظ كل صباح . هل عدل إذن هر "**شولتز**" الذي لم يعد يراه أو يقابله في نزهاته، عن مشروعه بأن يتخلص

منه ؟ لا ، بدون شك، كما أنه لم يتخل عن مشروع تدمير مدينة الدكتور "**سارازان**" .

استفاد "**مارسيل**" إذن من السماح له بالحياة، كل يوم يجدد حيلته . كان يأخذ حذره بالا يدخن نبات ست الحسن المخدر، كان لديه علبتان من الدخان واحدة لاستعماله الشخصي والثانية للحيلة اليومية التي يفعلهاا .كان هدفه ببساطة أن يوقظ الفضول لدى "**أرمينيوس**" و"**سيجيمار**" إنهما مدخنان مدمنان، هذان المتوحشان لابد أن يلاحظا الشجيرة التي يقطف منها الأوراق، ويقلدا العملية التي يقوم بها ويجربا طعم هذا الخليط .

كان الحساب صحيحا والنتيجة المتوقعة حدثت بطريقة آلية .

اليوم السادس– ليلة يوم ١٣ سبتمبر (أيلول) المشؤوم .

نظر "**مارسيل**" خلفه بطرف عينه وشعر بالرضا بأن رأى الحارسين يأخذان تموينهما من الورق الأخضر .

بعد ساعة تأكد من أنهما يجففان الورق بحرارة النار ويفركانه بأيديهما الغليظة ويخلطانه بالدخان، كما إنهما يلحسان شفاههما مقدما!

هل خطط "**مارسيل**" أن يخدر "**أرمينيوس**" و"**سيجيمار**"فقط ؟ لا . لم يكن هذا كافيا لكي يهرب من مراقبتهما .

يجب أن يجد أيضا إمكانية أن يمر عبر القناة من خلال المياه التي تصب فيها حتى لو كانت هذه القناة تبلغ عدة كيلو مترات طولا، لقد تخيل "**مارسيل**" هذه الوسيلة، هذا صحيح أن فرصة موته بلغت تسعة إلى عشرة، لكن التضحية بحياته التي حُكم عليها بالفناء كان قد تحدد منذ زمن طويل .

حلّ المساء ومع المساء ساعة العشاء ثم ساعة النزهة الأخيرة ، الثلاثي الذي لايفترق سلك طريق الحديقة .

بدون أن يتردد ، دون أن يضيع دقيقة واحدة ، توجه "**مارسيل**" إلى مبنى مرتفع الذي لم يكن سوى مرسم الموديلات ، اختار جانبا مبتعدا ، نظف غليونه وأخذ يدخن .

فجأة، جلس "**أرمينيوس**" و"**سيجيمار**" اللذان أمسكا غليونيهما استعدادا للتدخين في جانب مجاور وبدءا يدخنان نفثات ضخمة .

لم يتأخر تأثير المخدر.

لم يفت خمس دقائق ، حتى تثاءب العملاقان وتمددا كالدبين في القفص، عيناهما كالسحاب، أذناهما حمراوان ، يتغير وجهاهما من الأحمر الفاتح إلى الأحمر القاني، سقطت ذراعاهما ساكنتين، رجع رأساهما للخلف.

سقط الغليونان على الأرض.

أخيرا ، تعالى الشخير مختلطا بزقزقة العصافير، إنه صيف دائم في حديقة "**ستالستاد**".

لم يكن "**مارسيل**" ينتظر سوى هذه اللحظة بفارغ الصبر، وهذا يفهم بما أن في مساء اليوم التالي الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة،"**فرانس ڤيل**" التي حكم عليها هر "**شولتز**" ستنتهي من الوجود.

أسرع "**مارسيل**" داخل مرسم الموديلات ،. هذه القاعة الواسعة بها متحف كامل. بقايا آلات، عربات قطارات ، آلات بخارية ، توربينات ، ثاقبة، آلات بحرية، هياكل سفن، كان هناك العديد من الآلات كانت نماذج خشبية لكل ما تم صنعه في مصنع "**شولتز**" منذ إنشائه ، وكذلك لم ينقص المكان نماذج المدافع، أو القنابل.

كان الليل حالكا ، ظروف مواتية للمشروع المتهور للشاب الألزاسي الذي فقد العزم على تنفيذه في نفس الوقت الذي راح يعد فيه خطته للهرب أراد القضاء على متحف نماذج "**ستالستاد**" .

آه! لو استطاع أيضا تدمير "**برج الثور**" الضخم المنيع مستخدما المدفع الذي يختبئ فيه!

لكن لا يجب التفكير في ذلك.

الهم الأول لـ"**مارسيل**" كان أن يأخذ منشارا من الحديد ، يصلح لنشر الحديد الذي كان معلقا في أحد أركان المرسم ودسه في جيبه ، ثم أشعل ثقابا دون أن تتردد يده لحظة ، حمل الشعلة إلى ركن من القاعة حيث تراكمت صناديق ورقية ونماذج من خشب الأرز ثم خرج.

بعد لحظات امتدت ألسنة النار الكثيفة خارج النوافذ ، وقد غذتها كل هذه المواد القابلة للاشتعال على الفور ، رن جرس الإنذار. تيار حرك كل أجهزة الإنذار الكهربائية في أنحاء "**ستالستاد**" ، ورجال المطافئ يجرون أجهزة الإطفاء يسرعون من كل مكان في نفس اللحظة ، ظهر هر "**شولتز**" ، والهدف من ظهوره هو تشجيع الرجال العاملين.

في لحظات ، عملت أجهزة الإطفاء والمضخات بسرعة طوفان من الماء تدفقت على الحوائط وتحت أسقف متحف النوافذ ، ولكن النار الأكثر قوة من الماء والتي كانت تتبخر بدلا من أن تطفئها ، قد نالت من أجزاء من المبنى نفسه ، خلال خمس دقائق بلغت قوة أدت إلى فقدان كل الآمال في السيطرة عليها كان مشهد هذا الحريق ضخما ومخيفا.

"**مارسيل**" متسمر في ركن ، لم يترك ببصره هر "**شولتز**" الذي يدفع رجاله لإنقاذ المدينة. كان متحف النماذج معزولا في الحديقة، وقد أصبح مؤكدا الآن أن النار ستلتهمه كله.

في هذه اللحظة ، عندما رأى هر "**شولتز**" أنه لا يستطيع إنقاذ المبنى نفسه ، صاح بأعلى صوته :عشرة آلاف دولار لمن ينقذ النموذج رقم ٣١٧٥ الموجود تحت حاجز زجاجي في المركز ! هذا النموذج هو بالتحديد نموذج المدفع الشهير الذي صنعه "**شولتز**" والأكثر قيمة بالنسبة له من أي نماذج أخرى موجودة في المتحف .

لكن لإنقاذ هذا النموذج يُطلب أن يلقي المرء بنفسه تحت أمطار النيران ويعبر خلال جو من الدخان الأسود. فرصة النجاة واحد من عشرة! على الرغم من الطُعم الكبير وهو عشرة آلاف دولار لم يجب أحد على نداء هر "**شولتز**" .

تقدم رجل حينئذ :

إنه "**مارسيل**" قال :

سأذهب!

صاح هر "**شولتز**" :

– أنت!

– أنا!

– هذا لن ينقذك لتعلم هذا من حكم الموت الذي نطقت به عليك!

– لا أدَّعي أنني أريد ذلك ، ولكني أريد تخليص هذا النموذج القيم من الدمار.

أجاب هر "**شولتز**" :

– اذهب إذن وأقسم لك أنك لو نجحت سأمنح ورثتك عشرة آلاف دولار.

أجاب "**مارسيل**" :

– أصدقك تماما.

لقد أحضر عددا كبيرا من أجهزة "**جالبير**" المجهزة دائما للاستعمال في حالة الحرائق والتي تسمح بالتنفس في الأماكن غير الصالحة للتنفس قد استخدمها "**مارسيل**" عندما حاول إنقاذ الصغير "**كارل**" ابن السيدة "**بويه**".

وضع على ظهره واحدا من تلك الأجهزة المحملة بالهواء المضغوط . وضع المشبك في أنفه وفتحة الخرطوم في فمه وانطلق في الدخان.

قال لنفسه:

– أخيرا لدي ربع ساعة من الهواء في هذا الخزان."

ليجعلها الله كافية!

يمكن تخيله بسهولة، لم يفكر "**مارسيل**" بأي حال من الأحوال في إنقاذ نموذج "**شولتز**" لم يفعل سوى أن عبر– معرضا حياته للخطر– القاعة المعبَّأة بالدخان تحت الأنقاض المشتعلة التي لم تصبه–بمعجزة– في اللحظة التي سقط فيها السقف، هرب من باب مواجه يؤدي إلى الحديقة.

العدو إلى النهر الصغير، النزول حتى مصبه المجهول الذي يؤدي إلى خارج"**ستالستاد**" ، الغوص فيه دون تردد. كل هذا استغرق من "**مارسيل**" بضع ثوان.

دفعه تيار سريع إلى ماء كثيف يبلغ عمقه مترين ونصف لم يكن محتاجا إلى أن يدفع نفسه، لقد جرفه التيار . لاحظ فجأة أنه دخل مجرى ضيق يملؤه النهر تماما.

سأل "**مارسيل**" نفسه:

– ما طول هذا المجرى؟ لو لم أعبر في ربع ساعة سأفقد الهواء ، وسأهلك!

احتفظ "**مارسيل**" بهدوئه منذ عشر دقائق والتيار يجرفه حتى اصطدم بحاجز.

إنه باب حديدي يقفل القناة.

قال "**مارسيل**" ببساطة:

– يجب أن أخشى ذلك . ودون أن يضيع ثانية، أخذ المنشار من جيبه وبدأ ينشر القفل.

خمس دقائق من العمل ولم ينفتح القفل.

وبقيت البوابة الحديدية مقفولة بشدة. . إن "**مارسيل**" يتنفس بالفعل بصعوبة بالغة، لقد ندر الهواء للغاية في الخزان، ولايصل إليه إلا في كمية غير كافية شعر بطنين في أذنيه ، والدماء في عينيه. كل ذلك يشير إلى الاختناق الذي سيهلكه ! قاوم، ومنع نفسه من التنفس ليدخر الأكسچين ولكن لم يستسلم القفل!

في هذه اللحظة هرب المنشار من يده. فكر:

– لن يتخلى الله عني!

هز البوابة الحديدية بيديه، هزها بالقوة التي توفرها غريزة البقاء.

انفتحت البوابة . كسر القفل وحمل التيار "**مارسيل**" المسكين شبه مختنق محاولا استنشاق آخر ذرات هواء في الخزان!

في اليوم التالي، عندما دخل رجال هر "**شولتز**" إلى المبنى الذي التهمته النيران تماما، لم يجدوا ولا بين الأنقاض ولا في الرماد الساخن أثرا لمخلوق بشري .

كان متأكدا إذن أن العامل الشجاع كان ضحية لشجاعته . هذا لم يدهش الذين عرفوه في ورش المصنع.

لم ينقذ إذن النموذج الغالي، ولكن الرجل الذي يملك أسرار ملك الفولاذ قد مات.

قال هر "**شولتز**" في طيبة!

– السماء شاهدة على أنني أردت أن أوفرعليه الألم! على أية حال لقد وفر عشرة آلاف دولار!

كان هذا كل تأبين الشاب الألزاسي.

الفصل العاشر

مقال في مجلة ألمانية

مضى شهر قبل الزمن الذي وقعت فيه الأحداث السابقة، نشرت مجلة ذات غلاف برتقالي ، اسمها "**قرننا**"نشرت مقالا خاصا بـ"**فرانس ڤيل**" مطعما بذوق الامبراطورية الألمانية. ربما لأنه يدعي بأنه درس هذه المدينة من وجهة نظر عملية بحتة.

"لقد أعلمنا بالفعل قراءنا عن ظاهرة غير عادية التي حدثت على الساحل الغربي للولايات المتحدة الأمريكية ، بفضل التزايد الكبير لعدد المهاجرين الموجودين بها لقد جعلت العالم يعتاد على تتابع المفاجآت. ولكن الأخيرة والفريدة هي ما يسمى "**فرانس ڤيل**" التي لم تكن موجودة حتى كفكرة منذ خمس سنوات والآن مزدهرة ووصلت إلى أعلى درجة من الازدهار.

لقد نشأت هذه المدينة كالسحر على الشاطئ العَطر للمحيط الهادي. لن نتحقق إذن، كما يؤكدون أن الخطة البدائية والفكرة الأولى لهذا المشروع تنتمي إلى فرنسي، الدكتور "**سارازان**" هذا الأمر ممكن بما أن هذا الدكتور ينتمي بصلة قرابة بعيدة مع عظيمنا ملك الفولاذ. كذلك يجب القول بأن الإرث الذي عاد بشكل شرعي لـ هر "**شولتز**" ليس غريبا على إنشاء هذه المدينة "**فرانس ڤيل**" في كل مكان حيث يوجد الخير في العالم ، من الممكن التأكد من وجود الأصل الجرماني ، هذه حقيقة نحن فخورون بها وبإظهارها في كل مناسبة لكن مهما يكن ، نحن مدينون لقرائنا بتفاصيل محددة وحقيقية عن هذه المدينة النموذجية.

" لانستطيع أن نبحث عن اسمها على الخريطة.

حتى الأطلس الكبير ذو الثلاثمائة وثمانية وسبعين كتابا لعظيمنا "**توتشجمان**" ، حيث يشار بدقة متناهية إلى كل شجيرة وحزمة أشجار للعالم القديم والحديث، حتى هذا الأثر لعلم الجغرافيا لايحمل أقل أثر لـ"**فرانس ڤيل**" . في هذا المكان الذي نشأت فيه

هذه المدينة الجديدة ، كان مكانها منذ خمس سنوات ، أرضا جرداء . إنها النقطة المحددة المشار إليها في الخريطة عند خطي عرض ٤٢ْ درجة شمالا وخطي طول ١٢٤ درجة ٤١ ١٧ غربي خط جرينتش. إنها موجودة كما نرى ، على شاطئ المحيط الهادي وأسفل السلسلة الثانية لجبال "**روشيز**" التي اتخذت اسم "**مونت دي كاسكاد**" بالقرب من "**كاب بلان**"، ولاية "**أوريجون**"، أمريكا الاستوائية.

(المكان الأكثر فائدة الذي بحث عنه بعناية واختير من بين عدد كبير من الأماكن الجيدة الأخرى، وبين الأسباب التي عللت اختيارها كان خاصة حرارتها المعتدلة في القطب الشمالي الذي كان دائما رأس الحضارة الإنسانية- موقعها وسط جمهورية فدرالية وولاية مازالت جديدة مما سمح لها أن تضمن لنفسها استقلالها ويكون لها نفس الحقوق التي تتمتع بها ولاية "**موناكو**" في "أوربا" شريطة أن تدخل بعد عدد من السنوات في الاتجاه ؟ موقعها على المحيط ،الذي أصبح أكثر فأكثر الطريق الكبير للكرة الأرضية، الطبيعة الخصبة والواسعة للتربة؛ التجاور مع سلسلة جبال التي تمنع رياح الشمال والوسط والشرق.

تاركة نسيم المحيط مما يتيح تجديد هواء المدينة.

وجود نهر صغير حيث الماء النقي ، العذب ، الخفيف مجدد الأكسجين بسبب الانحدارات المتكررة وسرعة التيار، فتصل إلى البحر شديدة النقاء- في النهاية ، ميناء طبيعي سهل التنمية.

" هذه فقط بعض المزايا الثانوية مجاورة طرق من الرخام والحجارة وتبر يحوي الذهب، في الواقع كادت هذه الحقيقية أن تؤدي إلى ترك هذه الأرض ، خشي مؤسسو المدينة أن تؤثر حمى الذهب على ماهية مشروعاتهم .

لكن لسعادتهم كان التبر قليلا ونادرا .

" اختيار الأرض، على الرغم من أنه قد تم من خلال دراسات جادة ومتعمقة فهي لم تأخذ إلا قليلا من الأيام ولم تتطلب ضرورة بعثات خاصة. إن علم الأرض أصبح الآن متقدما بقدر كاف حتى يستطيع المرء دون أن يخرج من مكتبه أن يحصل على معلومات دقيقة ومحددة للمناطق الأكثر بعدا.

حددت هذه النقطة ، ركب مراقبان من لجنة الهيئة ، أول مركب من "**ليـفـربول**" ووصلا بعد أحد عشر يوما إلى "**نيـويورك**" ، وبعد سبعة أشهر وصلا إلى "**سـان فرانسيسكو**" حيث ركبا مركبا بخاريا أوصلهما في عشر ساعات إلى المكان المحدد.

التفاهم مع الهيئة التشريعية لولاية "**أوريجـون**" ، الحصول على تصريح لأرض ممتدة على شاطئ البحر.

صرف نظر مجموعة من المزارعين عن الأرض لهم عليها حقوق حقيقية أو مفترضة وذلك ببضعة آلاف من الدولارات . كل ذلك لم يستغرق سوى شهر " في يناير (كانون الثاني) ١٨٧٢ ، تم الاعتراف بالأرض، ثم قياسها وتعليمها ، بدأ فيها العمل جيش من عشرين ألف عامل صيني تحت إدارة خمسمائة مدير ومهندس أوربي ، إعلانات مرفوعة في كل أنحاء ولاية "**كاليفورنيا**" تم إلحاق عربة إعلانات دائمة بالقطار السريع الذي ينطلق كل صباح من "**سان فرانسيسكو**" لبعبر القارة الأمريكية ، وإعلان يومي في الثلاثة والعشرين جريدة لهذه المدينة ، كل ذلك كان كافيا لجلب العمالة، كان لاجدوى من تبني مشروع الدعاية بشكل كبير، لقد عرضت حملة إعلانية خدماتها الإعلانية بسعر مخفض. يجب القول أيضا بأن تدفق العمال الصينيين إلى أمريكا الغربية قد أدّى إلى انخفاض الرواتب . عدة ولايات لجأت إلى طرد هؤلاء التعساء بشكل جماعي لتحمي وسائل كسب العيش لمواطنيها ولتمنع العنف الدموي ، إن إنشاء "**فرانس ڤيل**" قد منع هلاكهم ، حدد راتبهم بدولار في اليوم والذي لايسدد لهم إلا بعد أن يؤدوا عملهم وكذلك يقدم إليهم الطعام من خلال مناطق مفرقة عن طريق الإدارة البلدية ، وبذلك تم تجنب الفوضى والمضاربات المخجلة التي تلحق العار بهذه التجمعات من السكان . تعرض نتائج العمل، طوال الأسبوع في وجود مندوبين من البنك الكبير بـ"**سان فرانسيسكو**" وكل عامل يلحق بالعمل يحثونه على ألا يعود! احتياط ضروري للتخلص من الجنس الأصفر ، الذي لن يفوته التأثير سلبيا على عبقرية المدينة الجديدة ، وعلى الرغم من ذلك لقد احتفظ المؤسسون بحق الموافقة أو رفض إعطاء السماح بالإقام ، وكان تطبيق الإجراءات بشكل تقريبي سهل.

" أول مشروع كبير كان إنشاء فرع سكة حديد يربط أرض المدينة الجديدة بخطوط

"**باسيڤيك ريلرود**" . ويسقط في مدينة "**سكرامنتو**" . لقد دفعت هذه الأعمال وأعمال الميناء بنشاط فوق العادي. منذ شهر إبريل (نيسان) .وصل أول قطار مباشر من "**نيويورك**" إلى محطة "**فرانس ڤيل**" وبه أعضاء اللجنة الذين بقوا إلى هذا التاريخ في "**أوربا**" . " في هذه الفترة توقفت الخطط العامة للمدينة، تفاصيل المساكن ومعالم المدينة.

" لم تكن المواد هي ما تنقصهم منذ الأخبار الأولى للمشروع ، أسرعت الصناعة الأمريكية بإغراق أرصفة "**فرانس ڤيل**" بكل العناصر التي يمكن تخيلها اللازمة للبناء . لم يكن لدى المؤسسين سوى حيرة الاختيار. قرروا أن الأحجار ستكون لبناء المباني القومية والزخرفية العامة بينما تُبنى المنازل من الطوب، ليس من هذا الطوب القبيح المصنوع من الطين، ولكن الطوب الخفيف المنتظم في أشكاله، له وزن وكثافة، مخرم بشكل طولي بثقوب أسطوانية ومتوازية .

هذه الثقوب مجموعة الطرف عند الطرف تشكل ممرات مفتوحة في كل الحوائط مما يسمح للهواء بالدوران بحرية في الغلاف الخارجي للمنازل كما في الحواجز الداخلية(١) هذا التصميم له قيمة عالية أخرى فهو يحجب الصوت ويجعل لكل منزل خصوصية كاملة. لم تفرض اللجنة على البنائين نوعا من المنازل . بل كانت اللجنة مناهضة لفكرة توحيد الشكل المجهدة والمملة.

قد اكتفت بأن وضعت عددا من القواعد الثابتة التي تعهد المهندسون بتنفيذها:

١- كل منزل يعمل في قطعة أرض مزروعة بالأشجار والحشائش والورد. ويخصص المنزل لأسرة واحدة .

٢- لايعلو المنزل أكثر من طابقين، لايحتكر أحد الهواء والماء بشكل يضر الآخرين.

٣- سيكون لكل منزل واجهة تبعد عن الشارع عشرة أمتار للخلف ، ويفصل بين كل منزل شبكة عالية.

٤- تكون الحوائط من الطوب الأنبوبي المنصوص عليه المتوافق مع النموذج . كل الحرية متروكة للمهندسين فيما يخص الزينة.

٥- الأسطح بها شرفات ممتدة في جوانب أربعة مدهونة، على حوافها إفريز لمنع

---

(١) هذا الوصف وكذلك الفكرة العامة للصحة مأخوذة عن العالم الطبيب (بنجامين وارد ريتشاردسون) عضو الجمعية الملكية بـ "لندن".

الحوادث وبها قنوات للتخلص من ماء الأمطار.

٦- كل المنازل تبنى على قبو مفتوح من كل جانب مكونا تهوية أرضية ،قنوات المياه وقنوات التخلص منها ستكون في مركز القبو، بطريقة تسهل الكشف عنها وفي حالة الطوارئ يمكن الحصول على الماء بسهولة. مساحة هذا القبو ترتفع خمسة أو ستة سنتيمترات عن مستوى الشارع. يوصلهما بالمطابخ بشكل مباشر باب وسلم خاص. كل عمليات الإصلاح يمكن إجراؤها دون المساس بالمظهر العام وبدون رائحة.

٧- المطابخ وملحقاتها بعكس الاستخدام العادي، سيكون مكانها في الطابق العلوي ومتصلة بالشرفة والتي ستصبح ملحقا للمطبخ في الهواء الطلق، مصعد يتحرك بقوى ميكانيكية، سيكون مثل الضوء الصناعي والماء بسعر مخفض في تناول السكان مما يسمح بنقل أية أحمال إلى هذا الطابق.

٨- تصميم الحجرات يترك للمزاج الشخصي . لكن هناك عاملان خطيران من أهم عوامل الأمراض وضرر حقيقي ومعمل للسموم يمنعان بكل حزم: السجاد وورق الحائط . الباركيه (الأرضية الخشبية) المصممة بشكل فني من الخشب القيم مجمع على شكل موزايك بأيدي نجاري خشب الأبنوس المهرة ، هذا العمل الفني سيفقد الكثير بأن يخفى تحت سجاد غير مضمون نظافته . أما الحوائط فتغطى بطوب مدهون مما يتيح أمام الأعين ضوءا وتنوع الغرف الداخلية في "**بومباي**"، مع فخامة في الألوان، أما ورق الحائط فهو مع الوقت يصبح محملا بالجراثيم التي لاتُرى. يتم غسل الحوائط كما تُغسل الأسطح الزجاجية والنوافذ كما أنه بدعك الباركيه والأسقف لايمكن لأي جرثومة أن تعلق بها .

٩- لكل حجرة نوم حمام منفصل، هذه الحجرة التي يقضي بها المرء ثلث حياته يجب أن تكون ، الأوسع ، الأكثر تهوية وفي نفس الوقت الأبسط. لايجب أن تستعمل إلا في النوم: أربعة مقاعد، سرير من الحديد مزود بمفرش ومرتبة، هذا هو الأثاث الوحيد اللازم أما اللحاف الريش وغطاء السرير المضلع والأشياء الأخرى المعتادة فهي حلفاء الأمراض الوبائية لذلك فهي مستبعدة. أغطية جيدة من الصوف، خفيفة ودافئة سهلة التنظيف يمكن استبدالها . دون منع الستائر بشكل كلي ، يصح على الأقل باختيار ها من بين الأقمشة التي تسمح بالتنظيف باستمرار.

١٠- لكل حجرة مدفأة، حسب الذوق ، توقد نارها بالخشب أو بالفحم ولكن لكل مدفأة مدخنة. فتحة للهواء الخارجي . أما الدخان فبدلا من التخلص منه عن طريق السقف، فهو يخرج من خلال القنوات الأرضية التي تسوقه إلى أفران خاصة تم إنشاؤها على حساب المدينة خلف المنازل من أجل فرن يخدم مائتي ساكن هنا. فهي مجرد جزيئات الكربون وتتحول إلى حالته الشفافة ، وبعيدا عن جو الأرض بخمسة وثلاثين مترا.

" القواعد العامة لم تكن مدروسة بعناية أقل من هذه القواعد. "

" تصميم المدينة سهل ومنتظم بطريقة تسمح بالتنمية والتطوير . الشوارع متقاطعة في زوايا قائمة مرسومة بمسافات متساوية بعرض .. موحد، مزروعة بالأشجار ومرقمة.

" بين كل نصف كيلو متر يتسع الشارع تاركا جزءا من الطريق لسكة "**الترام**" أو المترو. في كل الميادين حديقة عامة محمية ومزدانة بقطع فنية مقلدة لكبار فناني النحت في انتظار أن ينتج فنانو "**فرانس ڤيل**" قطعهم الأصلية التي تستحق أن تحل مكان هذه القطع.

" كل الصناعات وكل تجارة حرة.

" للحصول على حق الإقامة في "**فرانس ڤيل**" ، يكفي ولكنه ضروري أن يكون المتقدم قادرا على ممارسة مهنة مفيدة أو حرة في الصناعة، العلوم أو الفنون، وعلى احترام قوانين المدينة لن يسمح بها للعيش بدون عمل.

" يكثر عدد المباني العامة وأكثرها أهمية الكاتدرائية، بعض الكنائس ، المتاحف ، المكتبات ، المدارس وصالات الرياضة مزودة بفخامة وبمواصفات صحية جديرة بمدينة كبيرة.

" يلزم الأطفال منذ سن الرابعة على اتباع تمرينات فكرية وبدنية من شأنها وحدها أن تنمي قواهم الذهنية والعضلية.

ويتم تعويدهم على نظافة متناهية حتى إنهم يعتبرون البقعة على ملابسهم البسيطة كأنها شيء مهين.

" إن مسألة النظافة الشخصية والجماعية هي الاهتمام الرئيسي لمؤسسي "**فرانس ڤيل**" التنظيف،التنظيف بدون توقف ، تدمير وإلغاء كل ما يسبب الأمراض للتجمعات السكانية. هذا هو العمل الرئيسي للحكومة المركزية . لهذا السبب يجمع نتاج المجاري

خارج المدينة ويعالج بعمليات تسمح بتكثيفه ونقله بشكل يومي إلى المزارع .

" يمر الماء في كل مكان بوفرة. الشوارع مبلطة بالخشب، والأرصفة بالأحجار وهي لامعة كبلاط محكمة هولندية .

تخضع الأسواق الغذائية لمراقبة مستمرة ، وتطبق عقوبات صارمة على التجار الذين يتاجرون بالصحة العامة، التاجر الذي يبيع بيضة فاسدة ، لحما فاسدا، أو لبنا منتهي الصلاحية يعامل ببساطة على أنه مسمم . هذه الشرطة الصحية. بالغة الأهمية والحساسية يعهد بها إلى رجال ذوي خبرة إلى متخصصين حقيقيين ، يتعلمون لهذا الغرض في مدارس طبيعية.

" حكمهم يمتد حتى المغاسل المنشأة على قاعدة كبيرة ليس بها ماكينات بخار ولا مجففات صناعية وخاصة غرف التعقيم. لايعود أي ملبس داخلي لصاحبه بدون أن يتم تنظيفه بالفعل، ويعتنى بوجه خاص بألا يجمع أبدا غسيل أسرتين مختلفتين . هذا الحرص البسيط له أثر كبير جدا .

" عدد المستشفيات قليل؛ لأن نظام العلاج في المنازل نظام عام، والمستشفيات مخصصة للأجانب الذين ليس لهم ملجأ في حالات استثنائية، ويضاف إلى ذلك أن فكرة إقامة مستشفى يكبر مبناه عن المباني الأخرى وجمع سبعمائة أو ثمانمائة مريض في بؤرة مرض، لم تقنع مؤسسي المدينة النموذجية. بعيدا عن البحث على تجميع عدة مرضى ، فالأرجح التفكير في عزلهم. إنها مصلحتهم الخاصةوفي نفس الوقت مصلحة عامة ، حتى في كل منزل يوصى بحجز في غرفة منفصلة بقدر المستطاع. المستشفيات ليست إلا منشآت استثنائية لمعالجة وقتية لبعض الحالات الملحّة.

"عشرون أو ثلاثون مريضا على الأكثر من الممكن أن يتواجدوا بها – لكل حجرته الخاصة– مصنوعة من خشب الأرز، يحرق كل سنة ويجدد ، عربات الإسعاف مصنوعة وفقا لنموذج خاص ولها خاصية إمكانية الانتقال من مكان إلى آخر في المدينة وفقا للحاجة وتضاعف وفقا للحاجة .

" يضاف إلى هذه الخدمة ابتكار عبقري وهو وظيفة جليسات المرضى المتدربات بشكل خاص على ممارسة هذه المهنة الخاصة.

يتبعون الإدارة العامة التي في خدمة الجمهور. يتم اختيار هؤلاء النساء بدقة بالغة ، ومن مساعدات قيمات وماهرات للأطباء يحملن إلى قلب الأسر المعرفة العملية اللازمة والغائبة في كثير من الأحيان في وقت الخطر ومهمتهن منع انتشار الأمراض في نفس الوقت الذي تعالج فيه المريض .

" لن ننتهي إذا أردنا حصر كل الوقايات الصحية التي بدأها مؤسسو المدينة الجديدة. يستلم كل مواطن عند وصوله كتيبا صغيرا حيث يعرض أهم المبادئ لحياة منتظمة وفقا للعلم. في لغة سهلة وواضحة.

" يرى في التوازن الفعلي لكل هذه الوظائف واحدة من ضروريات الصحة أن العمل والراحة مهمان لأعضائه، وأن التعب مهم لعقله كما لعضلاته إن تسعة من عشرة من الأمراض يرجع إلى العدوى التي ينقلها الهواء والطعام.

يجب تجنب استعمال السموم النشيطة ، ممارسة التدريبات للجسم ، شرب الماء النقي، أكل اللحم والخضر السليمة والمعدَّة بشكل بسيط ، النوم بشكل منتظم من سبع إلى ثماني ساعات بالليل. هذه هي ألف باء الصحة.

بعد أن تحدثنا عن المبادئ التي دفعها المؤسسون لقد وصلنا بدون أن نشعر إلى الحديث عن هذه المدينة الفريدة كأنها مدينة انتهي من بنائها ، هذا في الواقع، لقد أنشئت المنازل الأولى بالفعل والأخرى قد خرجت من الأرض بسرعة.

يجب زيارة "**فارويست**" لملاحظة هذا الازدهار العمراني. هذا المكان الذي كان مكانا مهجورا سنة١٨٧٢ قد أصبح به ستة آلاف منزل في سنة ١٨٧٣ . وصل عددها إلى تسعة آلاف وكل منشآتها الأخرى كاملة سنة ١٨٧٤ .

" يجب القول بأن المضاربة قد نالت نصيبا من هذا النجاح الذي لم يسمع عنه من قبل. في البداية أنشئت المنازل على أرض واسعة وبدون قيمة. فكانت تباع وتؤجر بأسعار معتدلة وبشروط بسيطة غياب أي نوع من الضرائب ، الاستقلال السياسي لهذه الأرض الصغيرة المعزولة، التجديد ، عذوبة الطقس كل ذلك ساهم في جذب الهجرة. الآن وصل عدد سكان "**فرانس ڤيل**" إلى ما يقرب من مائة ألف ساكن.

أفضل الأمور والشيء الوحيد الذي يهمنا هو أن التجربة الصحية تجربة قاطعة في الوقت الذي لم تكن فيه النسبة السنوية للوفيات في أفضل المدن في "**أوربا**، القديمة أو العالم الحديث قد انخفضت عن نسبة ثلاثة في المائة فإن في "**فرانس ڤيل**" متوسط الخمس سنوات الأخيرة لم يكن سوى واحد ونصف. وهذا الرقم قد تضخم بسبب وباء بسيط للإنفلونزا في السنة الماضية كان واحدا وربعا ١,٢٥٪ .

ظرف مهم آخر: لبعض الاستثناءات ، كل الوفيات التي تم تسجيلها حاليا كانت نتيجة مرض نوعي وفي الأغلب وراثي. كانت الأمراض الناتجة عن الحوادث نادرة بشدة محدودة وأقل خطورة من أي مكان آخر.

أما الأوبئة بمعنى الكلمة فلم تكن موجودة على الإطلاق.

" إن تنمية هذه المحاولة تستحق المتابعة مما يثير الفضول على وجه الخصوص هو بحث إذا كان أثر نظام علمي كهذا على جيل بأكمله أو على عدة أجيال سوف يضعف الاستعداد المرضي الوراثي.

" كتب أحد مؤسسي هذا التجمع السكاني المدهش:

إنه بالتأكيد ليس زهوا أن نأمل ذلك، وفي هذه الحالة سيكون من أعظم النتائج . الذين يعيشون حتى سن التسعين أو المائة لن يموتوا إلا بفعل الشيخوخة مثل أغلب الحيوانات والنباتات.

" كم هو مغر هذا الحلم!

" إذا سمح لنا بالتعبير عن رأينا الصادق فليس لدينا إلا إيمان ضعيف في النجاح القاطع للتجربة فنحن نرى فيها آفة جوهرية وجد خطيرة ، وهي أنها في أيدي لجنة يسيطر عليها العنصر اللاتيني حيث استبعد الجنس الجرماني تماما ، وهذا عرض خطير. منذ بداية الخليقة، لم يصنع شيء له خاصية الاستمرار سوى "**ألمانيا**" ولن يُفعل شيء نهائي إلا بها. مؤسسو "**فرانس ڤيل**" قد مهدوا الأرض وأناروا بعض النقاط الخاصة؛ ولكن ليس في هذه النقطة من "**أمريكا**" وإنما عند شاطئ "**سوريا**" سنرى ذات يوم ارتفاع المدينة النموذجية."

الفصل الحادي عشر

عشاء في منزل الدكتور "سارازان"

في الثالث عشر من سبتمبر (أيلول)- قبل ساعات فقط من اللحظة التي حددها هر "**شولتز**" لتدمير "**فرانس ڤيل**" لا الحاكم ولا السكان كانوا يتوقعون الخطر الداهم الذي يهددهم .

إنها الساعة السابعة مساء. متوارية بين أشجار الورد الكثيفة وأشجار التمر هندي امتدت المدينة أسفل "**كادسكاد مونتس**"معرضة أرصفتها الرخامية لأمواج الباسيفيك القصيرة التي تلمسها دون أن تحدث صوتا. الشوارع مرشوشة بعناية، بلطف جوها النسيم تشكل مشهدا مفعما بالسعادة والحيوية للناظر إليها. أوراق الأشجار التي تظللها تهتز محدثة صوتا هادئا. الحشائش مخضرة، الورد باسق من الأرض باعثا عبيره، المنازل مبتسمة ، هادئة، مدللة في لونها الأبيض، الهواء دافئ والسماء زرقاء مثل الذي يُرى لامعا في نهاية الشارع.

لو أن سائرا وصل إلى المدينة لأدهشه المظهر الصحي للسكان ، النشاط الذي يسيطر على الشوارع ، أغلقت معاهد الرسم، والموسيقى ، والنحت ، والمكتبة واجتمعوا في نفس الحي حيث نظم دروسا عامه ممتازة وقُسمت إلى أقسام تضم أعدادا قليلة مما يتيح لكل طالب أن يختص لنفسه بثمرة الدرس عند خروج الحشد من المنشآت يحدث لبضع لحظات بعض الزحام ولكن لايوجد أي تعليق يظهر نفاد الصبر ولا يسمع أي صيحة المظهر العام ينم عن الهدوء والرضا.

لم يكن في وسط المدينة ، ولكن على شاطئ "**الباسيفيك**" حيث أقامت أسرة الدكتور "**سارازان**" بيتها في هذا المكان من البداية- لأن هذا من أوائل المنازل التي بنيت- جاء الدكتور "**سارازان**" وأقام بشكل نهائي مع زوجته وابنته "**چان**" .

"**أوكتاڤ**" ، المليونير أراد أن يبقى في "**باريس**" ولكن لم يعد معه "**مارسيل**" حتى يكون له المحرك الأول. ضاع الصديقان تقريبا منذ ذلك الزمن الذي كانا يقيمان فيه معا

في شـــارع "**روادي سيـــيـــل**" عندما هاجر الدكتور مع زوجته وابنة إلى ساحل "**أوريجـــون**" بقي "**أوكتـاف**" سيد نفسه. لقد ابتعد عن المدرسة التي أراد والده أن يستكمل فيها دراسته ورسب في الامتحان النهائي الذي خرج منه صديقه حاصلا على المركز الأول.

حتى هذا الوقت كان "**مارسيل**" بمثابة البوصلة للمسكين "**أوكتاف**" غير قادر على قيادة نفسه.

عندما رحل الألزاسي الشاب، انتهى صديق طفولته بأن تحول شيئا فشيئا إلى حياة أطلق لها العنان ، هذه التسمية تماثل الواقع في هذه الحالة إذ إن "**أوكتاف**" كان يقضي جزءا كبيرا من حياته على عربة كبيرة يجرها أربعة خيول في سفر دائم بين شارع "**مارچيني**" حيث اشترى شقة وحقول السباق المختلفة في الضواحي.

"**أوكتاف سارازان**" الذي كان منذ ثلاثة أشهر يعرف بالكاد البقاء على ظهر خيول السباق التي يستأجرها بالساعة أصبح فجأة واحدا من رجال "**فرنسا**" الأكثر تعمقا في أسرار علم الخيل. لقد استقى علمه من خيّال إنجليزي ألحقه في خدمته وهو يأسره تماما باتساع معرفته الخاصة.

الخياطون، صانعو السرج والأحذية يتقاسمون نهاره ، ليله ملك المسارح الصغيرة والصالونات وكل ما هو مبهر وجديد في شارع "**ترونشيه**". اختار "**أوكتاف**" هذه الأماكن لأن الذين يتواجدون فيها يمجدون ثروته هذا التمجيد الذي لم تظفر به شخصية هذا العالم بدا له مثاليا شيء خاص، القائمة التي يحيط بها إطار فخم لاتحمل إلا أسماء أجنبية وكثرت الألقاب حتى يستطيع المرء أن يعتقد أنه في مدرسة خاصة بالشعارات عند عدها، ويمكن على الأحرى يعتقد أنك في معرض للأجناس البشرية. كل الأنوف الكبيرة والبشرة الصفراء كأنهم على موعد في هذا المكان مرتدين ملابس فخمة وذوقهم المائل إلى الألوان الفاتحة يكشف عن التطلع الأبدي للأجناس الصفراء والسوداء لألوان (الوجوه الشاحبة).

بدا "**أوكتاف سارازان**" إلها شابا بينهم يذكرون كلماته ، يقلدون رابطات عنقه،

يقبلون حكمه كأنه نص مُنزل. وهو ثمل لهذا الإطراء لايلاحظ أنه يخسر كل ليلة أمواله جميعها في القمار والسبق ، ربما بعض أعضاء النادي لطبيعتهم الشرقية، يعتقدون أن لهم الحق في ميراث البيجوم. على أية حال، إنهم يعرفون كيف يجذبون هذا الميراث إلى جيوبهم بحركة بطيئة ولكن مستمرة.

في هذه الحياة الجديدة ، انقطعت تقريبا العلاقات بين "**أوكتاف**" و"**مارسيل بروكمان**" . بالكاد من بعيد إلى بعيد يتبادل الصديقان خطابا . ماذا هناك من شيء مشترك بين المجتهد المنشغل فقط لتنمية ذكائه إلى أعلى مستوى من الثقافة والقوة. والصبي الجميل المنتفخ غرورا ورأسه ممتلئ بقصص النادي والخيل؟

من المعروف كيف غادر "**مارسيل**" "**باريس**" ، في البداية ليراقب أعمال هر "**شولتز**" الذي أسس "**ستالستاد**" منافسة لـ "**فرانس ڤيل**" على أرض مستقلة في "**الولايات المتحدة**" ثم ليدخل في خدمة ملك الفولاذ. خلال عامين عاش "**أوكتاف**" هذه الحياة عديمة النفع المبددة . أخيرا أصابه السأم بعد أن التهم عدة ملايين في أحد الأيام لحق بوالده– مما أنقذه من دمار مهدد، أخلاقيا أكثر منه بدنيا ، في هذا الوقت ظل إذن في "**فرانس ڤيل**" في منزل الدكتور.

أخته "**چان**" يحكم عليها على الأقل من مظهرها بأنها فتاة رائعة ذات التاسعة عشرة ربيعا حيث جعلت منها إقامتها أربع سنوات في هذا الوطن الجديد فتاة أمريكية ومضافا إليها الأناقة الفرنسية .

كانت والدتها تقول أحيانا إنها لم تشك أبدا في سحر صداقتهما الحميمة كانت رفيقتها في كل لحظة.

أما السيدة "**سارازان**" منذ عودة ابنها البكر الذي يحمل آمالها، كانت سعيدة تماما بأن يكون هنا معهم؛ لأنها تشترك في كل الخير الذي يستطيع زوجها أن يفعله بفضل ثروته الكبيرة.

في هذا المساء استقبل الدكتور "**سارازان**" على مائدة العشاء اثنين من أعز أصدقائه ، الكولونيل "**هيندون**" رجل حرب قديم فقد ذراعا في "**بيتسبرج**" وأذنا في "**سڤن**

أوكس" ثم السيد "**لنتز**" المدير العام للتعليم في المدينة الجديدة.

دار الحديث حول مشروعات الإدارة في المدينة والنتائج المحققة في المؤسسات العامة بكل أنواعها . معاهد ، مستشفيات ، صناديق المساعدات .

أسس السيد "**لنتز**" وفقا لبرنامج الدكتور –الذي لم يغفل فيه التعليم الديني – عدة مدارس ابتدائية حيث انصرف اهتمام المدرسين إلى تنمية عقل الطفل بإخضاعه لتدريب فكري محسوب بطريقة تتبع التطور الطبيعي لقدراته. يعلمونه أن يحب علما قبل أن يتعمق فيه متجنبين هذا العلم الذي قال عنه "**مونتاني**" "السباحة على سطح العقل "ذلك العلم الذي لايدخل في توافق مع الطفل لايجعله حكيما . بعد ذلك، الذكاء الذي أحسن إعداده سيعرف بنفسه أن يختار طريقه الذي يتبعه ويجني ثماره.

الاهتمام بالصحة في المقام الأول في تعليم منظم جيدا . إن الإنسان جسما وعقلا يجب أن يتأكد من هذين الخادمين ؟ إذا أخطأ الواحد، يتألم من ذلك.

في ذلك الوقت ، حققت "**فرانس ڤيل**" أعلى درجات الازدهار ليس فقط ماديا لكن فكريا . هنا في مجالس يجتمع ألمع العلماء في العالم، فنانون، رسامون ، نحاتون، موسيقيون تجذبهم سمعة هذه المدينة فيتدفقون عليها. على أيدي هؤلاء الأساتذة يتعلم شباب "**فرانس ڤيل**" الذين يوعدون بازدهار هذه البقعة من الأرض الأمريكية. من المسموح به إذن التنبؤ بأثينا جديدة ، من أصل فرنسي، بأن تصبح المدينة الأولى بين المدن.

جدير بالذكر أن التعليم العسكري للتلاميذ يقدم في المدارس بشكل تنافسي مع التعليم المدني. عند التخرج يعرف الشباب استخدام السلاح،المبادئ الأولى للاستراتيجية والتكتيك.

صرح الكولونيل عند الحديث عن هذه النقطة بأنه سعيد بكل هذا النشء" لقد اعتادوا على المارش ، التعب ، كل التدريبات البدنية جيشنا يتكون من كل المواطنين، وجميعهم في الوقت اللازم يصبحون جنودا منظمين ومستعدين للحرب" .

تتمتع "**فرانس ڤيل**" بأفضل العلاقات مع كل الدول المجاورة؛ لأنها ساعدتها في كل

المناسبات ولكن صوت نكران الجميل عال في المسائل التي تتعلق بالمصالح ، هذا مالم يغب عن تفكير الدكتور وأصدقائه واضعين أمامهم المثل القائل ساعد نفسك ، يساعدك الله! ولم يريدوا الاعتماد إلا على أنفسهم.

كانوا عند نهاية العشاء، رفع طبق الحلوى ، وفقا للعادات الأنجلو ساكسونية التي غلبت ، غادرت السيدات الطاولة.

استكمل الدكتور "**سارازان**" ، "**أوكتاف**" ، الكولونيل "**هيندون**" والسيد "**لنتز**" الحديث الذي بدأوه، وتطرقوا إلى أعلى مسائل الاقتصاد والسياسة عندما دخل خادم وأعطى الدكتور جريدته .

إنها "**نيويورك هيرالد**" هذه الصحيفة مشجعة للمؤسسة ثم لتنمية "**فرانس ڤيل**" وملاحظو المدينة اعتادوا أن يبحثوا بين أعمدتها عن الأخبار المحتملة للرأي العام في "**الولايات المتحدة**" بشأنهم . هذا التجمع من الأناس السعداء الأحرار، المستقلين، على هذه الأرض المحايدة قد أثار الحاقدين وإذا كان لسكان "**فرانس ڤيل**" مساندون في "**أمريكا**" يدافعون عنهم فهناك أيضا أعداء يهاجمونهم. على أية حال كانت صحيفة "**نيويورك هيرالد**" في صفهم وهي لاتكف عن إظهار الإعجاب والتقدير.

أثناء الحديث ، فتح الدكتور "**سارازان**" الصحيفة وألقى بصره على المقال الأول.

بدت دهشته عند قراءته بعض السطور التي بدأ قراءتها بصوت منخفض ثم بصوت مرتفع مما أثار دهشة أصدقائه واستياءهم العميق .

"**نيويورك**"، ٨ سبتمبر(أيلول) هجوم عنيف على حقوق الإنسان، سيتم قريبا ، علمنا من مصدر موثوق به أن أسلحة قوية تعد في "**ستالستاد**" بهدف الهجوم وتدمير "**فرانس ڤيل**" المدينة ذات الأصل الفرنسي. لانعرف إذا كانت "**الولايات المتحدة**" تستطيع ، ويجب أن تتدخل في هذه الحرب التي ستضع في المواجهة الجنس اللاتيني والساكسوني ولكننا نشجب هذا الاستخدام الخاطئ للقوة. الا تضيع "**فرانس ڤيل**" ساعة واحدة لتضع نفسها في وضع الدفاع.

الفصل الثاني عشر

النصيحة

لم يكن سرا ، كراهية ملك الفولاذ لصنيعة الدكتور "**سارازان**" . من المعروف أنه أقام مدينة ضد مدينة. ولكن أن يتعرض لمدينة مسالمة يدمرها بضربة فلقد بالغ في الأمر على الرغم من ذلك،كان مقال "**نيويورك هيرالد**" إيجابيا، لقد نفذ مراسلوا هذه الجريدة القوية إلى مشروعات هير "**شولتز**"ولقد قالوها ليس هناك ساعة لإضاعتها.

بقي الدكتور في البداية مرتبكا، مثل كل الضمائر الشريفة، رفض طويلا أن يصدق أن هناك شرا . بدا له مستحيلا أن يؤدي العداء إلى الرغبة في التدمير بدون هدف أو لمجرد رغبة مدينة تمثل بشكل ما النقاء المشترك للإنسانية.

صاح في سذاجة:

فكروا إذن في أن متوسط الوفيات هذا العام لن يكون واحدا وربعا في المائة! إنه ليس لدينا صبي في العاشرة لايعرف القراءة ، إنه لم يرتكب حادث قتل ولا سرقة منذ إنشاء "**فرانس ڤيل**" !

وهمجيون يأتون للقضاء على تجربة سعيدة في مهدها.

" لاأستطيع قبول فكرة أن كيميائيا ، عالما ، چرمانيا يستطيع فعل ذلك!

بعد لحظات استعاد الدكتور سيطرته على نفسه ووجه حديثه إلى أصدقائه.

قال لهم :

– سادتي أنتم أعضاء المجلس المدني ، ويرجع لكم مثلي تماما اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لسلام المدينة، ماذا لدينا أن نفعل أولا؟

قال السيد "**لنتز**" :

– هل هناك إمكانية المصالحة؟ هل نستطيع أن نمنع الحرب بشكل مشرف ؟

أجاب "**أوكتاف**" :

– هذا مستحيل ، من الواضح أن هر "**شولتز**" يريد الحرب بأي ثمن. لن تهدأ

كراهيته .

صاح الدكتور:

– ليكن! سنرتب الأمر لنكن على مستوى الرد عليه.

هل تعتقد يا كولونيل أن هناك وسيلة للصمود أمام مدافع "**ستالستاد**" ؟

أجاب الكولونيل:

– كل قوة بشرية تستطيع أن تضرب بفاعلية قوة بشرية أخرى لكن لايجب أن نفكر في الدفاع عن أنفسنا بنفس الوسائل ونفس الأسلحة التي يستخدمها هر "**شـولتـز**" للهجوم علينا. صناعة آلات حرب قادرة على مواجهة أسلحته تستلزم وقتا طويلا. ولست أدري إذا كنا سننجح في صناعتها بما أننا ليس لدينا مصانع أسلحة. ليس لدينا سوى فرصة سلام. منع العدو من الوصول إلينا.

قال دكتور "**سارازان**" :

– سأستدعي المجلس على الفور.

أدخل الدكتور ضيوفه إلى حجرة المكتب .

إنها حجرة مؤثثة ببساطة، ثلاثة أركان بها أقسام محملة بالكتب بينما يمثل الركن الرابع تحت بعض اللوحات والأعمال الفنية صفا من الأعلام المرقمة.

قال:

– من خلال التليفون نستطيع أن ننصح "**فرانس ڤيل**" بأن يبقى كل فرد في بيته.

ضغط الدكتور على جرس الإنذار الذي اتصل في الحال بمنزل كل عضو من أعضاء المجلس وخلال دقائق انعقدت الجلسة من خلال خطوط الاتصال..

اتخذ الدكتور مكانه أمام ميكروفون جهاز الإرسال وحرك الجرس وقال :

"فتحت الجلسة.. الكلمة مع صديقي الكولونيل "**هيـنـدون**" ليخبر المجلس المدني خبرا بالغ الخطورة؟

وقف الكولونيل بدوره أمام التليفون وبعد أن قرأ مقال "**نيويورك هيرالد**" طلب أن تتخذ الإجراءات الأولية على الفور.

طرح عليه رقم ٦ سؤالا .

" هل يعتقد الكولونيل أن الدفاع جائز في حالة عدم نجاح الوسائل التي يعتمد عليها لمنع العدو من الوصول إلينا؟

أجاب الكولونيل "**هيندون**" بالإيجاب .

وصل السؤال والإجابة في الحال لكل عضو غير مرئي .

سأل رقم ٧ كم من الوقت في تقديره، لدى "**فرانس ڤيل**" للاستعداد ؟

" الكولونيل لايعرف ولكن يجب أن يتصرفوا وكأنهم كانوا سيهاجمون منذ خمسة عشر يوما .

رقم ٢ :" يجب انتظار الهجوم أم تعتقد أنه من الأفضل التنبؤ به ؟

أجاب الكولونيل :

– يجب فعل كل شيء للتنبؤ به إذا كنا مهددين بهجوم بحري نضرب سفن هر "**شولتز**" بمدافعنا . على هذا الاقتراح عرض الدكتور "**سارازان**" استدعاء الكيميائيين الأكثر مهارة وضباط المدفعية الأكثر خبرة ويعهد لهم دراسة مشروعات الكولونيل "**هيندون**" .

سؤال لرقم ١ :

" ما المبلغ المطلوب لبداية أعمال الدفاع على الفور!

– يجب توفير من خمسة عشر إلى عشرين مليون دولار .

رقم (٤) :

" أقترح باستدعاء مجلس المواطنين على الفور؟

الرئيس "**سارازان**" :

أعرض هذا الاقتراح للتصويت .

دقتا جرس من كل تليفون تعلن الموافقة الساعة الثامنة والنصف . لم يستمر انعقاد مجلس المدينة أكثر من ثماني عشرة دقيقة ولم يزعج أحدا .

أُستدعي مجلس الشعب بطريقة بسيطة أيضا .

بمجرد أن انتهى الدكتور "**سارازان**" من التصويت دائما بواسطة تليفونه دق جرس كهربائي فوق قمة كل عمود موضوع في المائتي ميدان في المدينة، هذه الأعمدة تعلوها ساعات ضوئية تتحرك عقاربها بفعل الكهرباء توقفت عند الثامنة والنصف موعد الاستدعاء تم إعلام كل السكان بهذه الطريقة مرة واحدة بهذا النداء ، أسرع الجميع بالخروج ورفعوا رؤوسهم نحو الساعة القريبة وعرفوا بذلك أن هناك واجبا وطنيا يدعوهم في ساحة البلدية أسرعوا نحوها .

في الساعة المزعومة يعني في أقل من ثلاثة أرباع الساعة، كان المجلس كاملا . الدكتور "**سارازان**" في موضع الشرف محاطا بكل المجلس. ينتظر الكولونيل "**هيندون**" أسفل المنصة ، وعهد إليه بالكلمة.

أغلب المواطنين يعرفون الخبر الذي اجتمعوا من أجله ، في الواقع لقد انتقل اجتماع المجلس المدني على الفور إلى الجرائد . خصص له عدد خاص.

كانت ساحة البلدية جناحا له سقف من الزجاج يدور فيه الهواء بحرية، يسقط فيه الضوء بغزارة عن طريق شريط غاز يرسم أضلع القبة.

كان الحشد واقفا ، هادئا، الوجوه مرحة . اكتمال الصحة، والاعتياد على حياة مليئة ومنتظمة، الثقة في القوة الذاتية كل ذلك جعل كل واحد فوق الشعور بالفوضى أو القلق أو الغضب.

بمجرد أن لمس الرئيس الجرس في تمام الساعة الثامنة والنصف ساد صمت عميق.

صعد الكولونيل إلى المنصة في لغة بسيطة وقوية، بدون تزيين لا طائل منه وبدون ادعاءات خطابية – لغة الناس الذين يعرفون ماذا يقولون أينطقون بوضوح لأنهم يفهمون ماذا يقولون– روى الكولونيل كراهية هر "**شولتز**" لـ"**فرنسا**"، ولـ"**سارازان**" ولعمله، والاستعدادات التي نشرتها صحيفة "**نيويورك هيرالد**" المخصصة لتدمير "**فرانس ڤيل**" وسكانها .

استطرد:

" إن عليهم اختيار الحزب الذي يعتقدون أنه الأفضل بعض الناس الذين يفتقدون

الشجاعة والوطنية ربما سيحبذون تسليم الأرض وترك العدو يستولي على الوطن الجديد . لكن كان الكولونيل متأكدا مقدما أن هذه الاقتراحات التي تتسم بالجبن لن تجد صدى لدى المواطنين الرجال الذين عرفوا عظمة الهدف الذي من أجله أقام المؤسسون المدينة النموذجية ، الرجال الذين عرفوا قبول القوانين ، هم بالضرورة أناس لهم قلب وعقل ذكي . ممثلون أوفياء ومحاربون من أجل التقدم، يريدون أن يفعلوا أي شيء لإنقاذ هذه المدينة التي لامثيل لها، اثر عظيم من أجل تحسين مصير الإنسان! واجبهم إذن بذل النفس للهدف الذي يمثلونه" .

تعالت موجة من التصفيق بعد هذه الكلمة .

العديد من المستمعين ناصروا اقتراح الكولونيل **"هيندون"** .

قرر الدكتور **"سارازان"** إذن ضرورة تكوين مجلس دفاع– دون تأخير– مسؤول باتخاذ كل الإجراءات العاجلة في سرية لازمة للعمليات العسكرية ، وتمت الموافقة على الفكرة .

في الجلسة المنعقدة ، اقترح أحد أعضاء مجلس المدينة التصويت على سلفة قدرها خمسة ملايين دولار مخصصة للأعمال الأولى . ارتفعت كل الأيدي للتصديق على الإجراء . في الساعة العاشرة وخمس وعشرين دقيقة . انتهى الاجتماع وانسحب سكان **"فرانس ڤيل"** عندما حدث حادث غير متوقع .

المنصة ، التي كانت خالية جاء ليحتلها غريب من مظهر أكثر غرابة .

ظهر هذا الرجل هناك كأنه سحر . وجهه ينم عن الانفعال ولكن سلوكه هادئ ورصين . ملابسه نصف ملتصقة بجسده وملوثة بالطين ،جبهته تدمي مما يكشف عما لاقاه من اختبارات صعبة عند رؤيته توقف الجميع بحركة طلب الغريب من الجميع عدم الحركة والهدوء .

من هو ؟ من أين أتى؟ لاأحد ، حتى الدكتور **"سارازان"** فكر في سؤاله .

قال :

" لقد هربت توا من **"ستالستاد"** حكم عليّ هر **"شولتز"** بالموت ، أراد الله لي أن

آتي إليكم لكي أحاول إنقاذكم . لست مجهولا بالنسبة للجميع هنا . سيدي الفاضل ، دكتور "**سارازان**" يستطيع أن يقول. آمل ذلك على الرغم من مظهري الذي يجعلني غير معروف حتى بالنسبة لي، يمكنكم الوثوق بـ "**مارسيل بروكمان**" !

صاح الدكتور و"**أوكتاف**" في نفس الوقت :

– "**مارسيل**" !

أسرع الاثنان نحوه...

حركة جديدة أوقفتهما.

إنه "**مارسيل**" حقا وقد أنقذ بمعجزة بعد أن كسر بوابة القناة ، في الوقت الذي سقط فيه شبه مختنق ، جرفه التيار كأنه جسم بلا حياة . لكن لحسن الحظ هذه البوابة حملته من "**ستالستاد**" وبعد دقيقتين قذف به خارجا على شاطئ النهر حرا أخيرا.

أثناء ساعات طويلة، بقي الشاب الشجاع متمددا دون حراك وسط هذا الليل الحالك. في هذه القرية المهجورة بعيدا عن كل مساعدة.

عندما عاد إليه الوعي ، كان الصبح قد بزغ.. لقد أنقذ... الحمد لله.

أخيرا أصبح خارج "**ستالستاد**" الملعونة! لم يعد حبيسا . كل تفكيره مركز على الدكتور "**سارازان**" وأصدقائه ، مواطنيه!

صاح:

– هم! هم!

بمجهود كبير استطاع "**مارسيل**" أن يقف على قدميه مسافة كبيرة كانت تبعده عن "**فرانس ڤيل**" ، مسافة كبيرة يقطعها دون قطار، دون سيارة ، دون حصان، عبر هذه المزارع شبه المهجورة حول مدينة الفولاذ المتوحشة هذه المسافة قطعها دون أي راحة وفي العاشرة والربع وصل إلى أول منزل في مدينة الدكتور "**سارازان**" . اللافتات التي تغطي الحوائط أعلمته بكل شيء وأدرك أن السكان قد أخبروا بالخطر الذي يهددهم، لكنه عرف أيضا أنهم لايعلمون كم أن هذا الخطر وشيك ولاحت ماهيته الغريبة.

الكارثة التي أعدها هر "**شولتز**" يجب أن تحدث هذا المساء في الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة.. الساعة الآن الحادية عشرة والربع.

بقي جهد أخير . عبر "**مارسيل**" المدينة بسرعة وفي العاشرة وخمس وعشرين دقيقة في اللحظة التي هم فيها المجلس بالانسحاب صعد المنصة .

صاح:

" ليس خلال شهر يا أصدقائي ولا حتى ثمانية أيام،أن يصيبكم الخطر! بعد ساعة، كارثة غير مسبقة، أمطار من الحديد والنار تنتشر في كل مكان ستصوب نحوكم . لقد رأيتها ليبحث النساء والأطفال عن مخبأ في قاع الكهوف الصلبة أو أن يخرجوا من المدينة في الحال ليبحثوا عن ملاذ في الجبال! الرجال الأصحاء يستعدون لمحاربة النار بكل الوسائل الممكنة!

النار، هي الآن عدوكم الوحيد! لاجيش ولا جنود يسيرون في مواجهتكم ، العدو الذي يهددكم يكره وسائل الهجوم التقليدية ، إذا تحققت خطط وحسابات رجل قدرته على الشر معروفة، ما لم يخطئ هر "**شولتز**" للمرة الأولى ، ستشتعل النيران فجأة في كل مكان في "**فرانس ڤيل**" ! في مائة نقطة مختلفة سيتعين عليكم مواجهة اللهب! مهما كان المتوقع يجب إنقاذ الشعب أولا لأن في النهاية ، منازلكم وآثاركم التي لاتستطيع إنقاذها حتى لو دمرت المدينة بأكملها يستطيع الذهب والوقت إعادة بنائها.

في "**أوربا**" كانوا سيعتقدون أن "**مارسيل**" مجنون ولكن ليس في "**أمريكا**" حيث ينفون معجزات العلم، حتى غير المتوقعة . استمعوا إلى المهندس الشاب وصدقوه لرأي الدكتور "**سارازان**" .

فتن الحشد لنبرة المتحدث أكثر من امتنانهم بحديثه وأطاعوه دون حتى أن يفكروا في مناقشته.

لقد أكد الدكتور على حديثه وهذا يكفي .

أعطيت الأوامر على الفور، انطلقت الرسائل في كل مكان لتوزيعها.

أما سكان المدينة، البعض دخلوا مساكنهم ونزلوا الخنادق مقررين الخضوع لقصف

مروع، الآخرون ، مرتجلون، ركبوا الخيول، أو في السيارات وصلوا إلى الحقول في تلك الأثناء وبكل سرعة! جمع الرجال الأصحاء في الميدان الكبير وعلى بعض النقاط المحددة من قبل الدكتور كل ما يمكن أن يكافح به النار، يعني الماء، التراب والرمال.

على الرغم من ذلك ، في قاعة الجلسات استمر الجمع في المناقشات .

ولكن جاءت "**مارسيل**" فكرة مُلحة لم تترك مكانا لأخرى في رأسه لم يعد يتكلم، همست شفتاه بهذه الكلمات فقط:

" في الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة هل من المعقول أن ينال منا هذا الملعون "**شولتز**" باختراعه الكريه؟.."

فجأة ، أخرج "**مارسيل**" بطاقة من جيبه. أصدر حركة يريد بها الصمت بقلم في يده رسم بيد ضعيفة بعض الأرقام على إحدى صفحات البطاقة ، وشيئا فشيئا أضاء جبينه وأصبح وجهه مشرقا.

صاح:

- آه يا أصدقائي، يا أصدقائي إما أن تكون الأرقام كاذبة أو أن ما نخشاه سيتبدد كالكابوس أمام وضوح مسألة متعلقة بالقذائف كنت أبحث عن حلها دون جدوى! لقد أخطأ هر "**شولتز**" الخطر الذي يهددنا به ليس سوى حلم! لمرة واحدة، علمه به عيب! لاشيء مما أعلنه سيحدث ولايستطيع أن يحدث ! قنبلته المذهلة ستمر من فوق "**فرانس ڤيل**" دون أن تلمسها وإذا بقي ما نخشاه فهو مما قد يحدث في المستقبل!

ماذا أراد أن يقول "**مارسيل**"؟ لانستطيع أن نفهمه!

لكن ، عرض الشاب الألزاسي نتيجة المعادلة الذي استطاع أخيرا أن يحلها .

لخص صوته الواضح المهتز حل مسألته بطريقة جعلتها واضحة حتى للجاهلين أنفسهم، إنه الصبح بعد الظلام. الهدوء بعد الغضب . ليس فقط أن القذيفة لن تلمس مدينة الدكتور ولكنها لن تلمس شيئا ، لقد قدر لها أن تضيع في الفضاء!

أكد الدكتور "**سارازان**" على النتائج الحسابية لـ"**مارسيل**" عندما أشار بأصبعه فجأة إلى الإطار المضيء في القاعة قال:

" خلال ثلاث دقائق سنعرف من المحق "**شولتز**" أم "**مارسيل بروكمان**"! مهما كان الأمر يا أصدقائي لن نندم على الاحتياطات التي اتخذناها ولن نهمل أي شيء لمواجهة اختراع عدونا ، إذا كان يجب أن تخطئنا ضربته كما قال "**مارسيل**" توا فلن تكون الأخيرة! كراهية "**شولتز**" لن تستسلم وتقف أمام الفشل!

صاح "**مارسيل**":

– تعالوا!

تبعوه جميعا إلى الميدان الكبير.

مضت الثلاث دقائق. دقت الساعة الحاديةعشرة وخمس وأربعين دقيقة!

بعد أربع ثوان ، مرت في السماء كتلة داكنة سريعة غابت بعيدا في الأفق .

صاح "**مارسيل**" مقهقها:

– رحلة سعيدة بهذه السرعة الكبيرة، قنبلة هر"**شولتز**" التي تعدت الآن الحدود الجوية لاتستطيع أن تسقط على الأرض!

بعد دقيقتين سمع صوت انفجار، صوت مخنوق كأنه آت من تحت الأرض!

إنه صوت مدفع برج الثور ، هذا الصوت وصل بعد مائة وثلاث عشرة ثانية من انطلاق القذيفة التي تتحرك بسرعة مذهلة.

الفصل الثالث عشر

مارسيل بروكمان
إلى البروفيسور "شولتز"،"ستالستاد"

"**فرانس ڤيل**"، ١٤ سبتمبر(أيلول).

" يبدو لي ضروريا أن أخبر ملك الفولاذ أنني عبرت بسعادة بالغة ، مساء أول أمس حدود مملكتك مفضلا سلامتي على سلامة نموذج مدفع "**شولتز**" .

" عند وداعي لك، سأخل بكل واجباتي لو لم أخبرك بدوري بأسراري؛ لكن لتكن مطمئنا ، لن تدفع بسبب ذلك حياتك.

" اسمي ليس "**شوارتز**" ، ولست سويسريا ، أنا ألزاسي . اسمي "**مارسيل بروكمان**" . أنا مهندس مبتدئ ،أنا فرنسي ، لقد صنعت من نفسك العدو اللدود لبلادي، وأصدقائي وأسرتي ، لقد مولت مشروعات كريهة ضد كل ما أحب، تجرأت على كل شيء، فعلت كل شيء لأعرفها! سأفعل كل شيء لأهزمها.

" إني متعجل لكي أخبرك أن ضربتك الأولى– حمدا لله– لم تصب هدفك لم تكن لتفعل ! مدفعك مدفع رائع!

ولكن قذائفك التي تقذف بها هذه الحمولة من البارود لن تصيب أي شخص بأذى ! لن تسقط أبدا في أي مكان.

لقد توقعت ذلك، واليوم، وتبجيلا لك أن تعرف أن هر "**شولتز**" اخترع مدفعا مفزعا... مسالما تماما .

" لتعلم إذن بكل سرور أننا رأينا قنبلتك جيدة الصنع وهي تمر مساء أمس في الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة وأربع ثوان فوق مدينتنا ، اتجهت نحو الغرب دارت في الفضاء ، وستستمر في الدوران حتى نهاية العالم ، قذيفة بسرعة الانطلاق هذه ، عشرة آلاف متر في الثانية لاتستطيع أبدا أن تسقط!

حركتها الانتقالية متحدة مع الجاذبية الأرضية تجعل منها جسما متحركا يدور حول

كوكبنا.

" كان عليك ألا تجهل ذلك.

" آمل بالإضافة إلى ذلك أن يدمر مدفع برج الثور بعد التجربة الأولى هذه ؛ إنه ليس غاليا ، مائتا دولار مقابل أن أهديت للعالم الكوني كوكبا جديدا وللأرض قمرا ثانيا.

"مارسيل بروكمان"

رحل قطار سريع على الفور من "**فرانس ڤيل**"إلى "**ستالستاد**" ويغفر لـ"**مارسيل**" أنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن فرحة توصيل هذا الخطاب إلى هر "**شولتز**" بدون تأخير .

كان "**مارسيل**" في الحقيقة محقا عندما قال إن القنبلة الشهيرة لن تسقط على سطح الأرض وهي تحركها هذه السرعة وإنها ستدور حول أجواء الأرض. سبب آخر يجعل مدفع برج الثور خارج الخدمة.

إنه خبر قاس لهر "**شولتز**" ، فشل ذريع لكبريائه، عندما يتسلم هذا الخطاب عندما قرأه شحب وجهه وبعد انتهائه من القراءة سقط رأسه على صدره كأنه تلقى ضربة ، لم يخرج من حالة الضعف هذه إلا بعد ربع ساعة، ولكن ياله من غضب.

على الرغم من ذلك، لم يكن هر "**شولتز**" ممن يعترفون بالهزيمة، إنها حرب دون رحمة التي ستشتعل بينه وبين "**مارسيل**" ، ألم يبق لديه هذه القنابل المحملة بالكربون السائل ، أو مدافع أقل قوة؟ لكن أكثر عملية تستطيع أن تقذف إلى مسافات قصيرة؟

هدأ فجأة، دخل ملك الفولاذ إلى مكتبه واستأنف عمله .

من الواضح أن "**فرانس ڤيل**" أصبحت مهددة أكثر من ذي قبل ولا يجب أن تغفل أي شيء لتجعل نفسها في موضع الدفاع .

الفصل الرابع عشر

استعداد للحرب

لو لم يكن الخطر قريبا فهو مازال قائما. أعلم "**مارسيل**" الدكتور "**سارازان**" وأصدقاءه كل ما يعرفه عن استعدادات هر "**شولتز**" وآلات الدمار التي لديه، منذ اليوم التالي اهتم مجلس الدفاع الذي أصبح عضوا فيه بمناقشة خطة مقاومة وتجهيز تنفيذها.

في كل ذلك وجد "**مارسيل**" مساعدة "**أوكتاف**" الذي تغير تماما بشكل إيجابي.

ما هي القرارات التي اتخذت ؟ لا أحد يعلم التفاصيل، المبادئ العامة فقط هي التي تصل إلى الصحافة وتنشر بين العامة.

كان يقال في المدينة:

"في أي دفاع ، العمل الأكبر هو معرفة قوة العدو وضبط نظام المقاومة وتكثيف لهذه القوة نفسها . بدون شك إن مدافع هر "**شولتز**" رائعة من الأفضل أن يكون في مواجهتنا هذه الأسلحة حيث نعرف العدد، العيار، والآثار عن أن نواجه آلات لانعرفها " .

كل شيء كان من أجل ألا تستغل المدينة عن طريق البر أو البحر.

إن هذه المسألة هي ما يدرسه بنشاط مجلس الدفاع واليوم الذي سيعلن فيه حل المشكلة لن يشك أحد في ذلك. أسرع المواطنون في مجموعات يعرضون تنفيذ الأعمال الضرورية لم يحتقر أحد أي مهنة، تستطيع أن تشارك في عملية الدفاع. رجال من كل الأعمار، من كل المراكز يعملون كعمال بسطاء في هذه الظروف. سار العمل بسرعة وفي مرح . خزنت في المدينة مؤن تكفي سنتين وصل الحديد والفحم أيضا بكميات كافية: الحديد مادة أولى للتسليح ، الفحم مولد حرارة وحركة لايمكن الاستغناء عنها في القتال.

لكن في نفس الوقت الذي جمع فيه الحديد والفحم كومات ضخمة من أجولة الدقيق واللحم المدخن، والجبن ، جبال من احتياطي الأغذية والخضراوات المجففة مخزنة في القاعات التي تحولت إلى مخازن .

أخيرا عندما أعلن التجنيد العام لكل من يستطيع حمل السلاح ، استقبل بحماس يظهر مرة أخرى الإرادة القوية لهؤلاء الجنود المدنيين، وكل منهم مزود بسترة من الصوف وبنطلون من الجلد، مسلح ببندقية.

مجموعات من العمال يقلبون الأرض ، يحفرون الخنادق، يرفعون الحصون في الأماكن المناسبة. بدأ صهر قطع المدفعية بحماس من الظروف المواتية لهذه الأعمال أنه من الممكن استخدام العدد الكبير من الأفران الدخانية التي تمتلكها المدينة وسيسهل استخدامها أفران صهر. وسط هذه الحركة الدائمة ، بدا "**مارسيل**" لايتعب، كان في كل مكان، وفي كل مكان على مستوى ما عهد له من عمل، عندما يقابل صعوبة نظرية أو عملية ، يعرف الحل على الفور، وعند الحاجة يشمر عن ساعديه ويقدم خدماته بسرعة، وسلطته مقبولة بدون همس وأوامره تنفذ حرفيا.

بالقرب منه، "**أوكتاف**" يبذل أفضل ما لديه .

في البداية أراد ارتداء الزي ذي الشرائط الذهبية لكنه عدل عن ذلك مدركا أنه ليس عليه– خاصة في البداية– إلا أن يبدأ جنديا بسيطا.

أخذ صفا وتعلم أن يتصرف كجندي نموذجي. كان يجيب على الذين اشتكوا منذ ذلك.

– لكل وفقا لقدراته . ربما لم أعرف أن أكون آمرا !

على الأقل أتعلم أن أطيع!

جاء خبر – غير صحيح – فجأة ليؤثر على أعمال الدفاع ويسبب لها الارتباك. يقال إن هر "**شولتز**" يبحث التفاوض مع شركات البحرية لنقل مدافعه، منذ تلك اللحظة وتتابعت الشائعات كل يوم.

كانت العوامة الشولتزية التي سيطرت على شاطئ "**فرانس ڤيل**" ، أحيانا خط السكة الحديد "**سكرامنتو**" الذي قطعه المرتزقة الذين نزلوا من السماء.

لكن كُذبت هذه الشائعات على الفور ، لقد ألفت من قبل الصحفيين بهدف إثارة فضول القراء.

الحقيقة كانت أن "**ستالستاد**" لم تعط أي إشارة للمياه.

هذا الصمت المطلق، ترك لـ"**مارسيل**" الوقت لاستكمال أعمال الدفاع لم يكن بعيدا عن إثارة قلقه بعض الشيء في أوقات فراغه النادرة.

كان يسأل نفسه أحيانا:

" هل غير هذا الرجل الشرير نظرياته ويدبر لي شيئا جديدا على طريقته؟

لكن الخطة، سواء كانت إيقاف سفن الأعداء، أو منع الاستيلاء تعد بأن ترد على كل شيء، "**مارسيل**" في لحظات قلقه يضاعف نشاطه.

متعته الوحيدة وراحته الوحيدة بعد يوم عمل هي الساعة السريعة التي يقضيها في صالون السيدة "**سارازان**".

آثر الدكتور منذ الأيام الأولى أن يأتي بشكل معتاد ليتعشى في بيته إلا في حالة ارتباطه بشيء آخر، ولكن هذا الارتباط شديد الإبهار الذي يجعل "**مارسيل**" يعدل عن هذه الميزة لم يأت بعد، دور الشطرنج المعتاد بين الدكتور والكولونيل "**هيندون**" ليس السبب القوي الذي يفسر مداومة "**مارسيل**" على الزيارة. يجب إذن التفكير في أن سحرا آخر يؤثر على "**مارسيل**" ربما نشك في طبيعته، ولكنه بالتأكيد لايشك فيه هو نفسه حتى الآن. إنها أحاديث المساء مع السيد "**سارازان**" والآنسة "**چان**" عندما يجلس ثلاثتهم بالقرب من الطاولة الكبيرة حيث تجهز السيدتان الشجاعتان أدوات الإسعاف.

سألت "**چان**" التي تهتم بكل أعمال الدفاع:

– هل هذه الكرات المصنوعة من الفولاذ أفضل من التي أطلعتنا على رسمها؟

أجاب "**مارسيل**":

– بدون شك يا آنستي.

– آه! أنا سعيدة من ذلك! لكن أقل تفصيل في الصناعة يحتاج إلى بحث وتعب!.. لقد قلت لي إنه قد تم بالأمس حفر خمسمائة متر جديد من الخنادق، هذا

كثير أليس كذلك؟

– لا، هذا حتى غير كاف ! على هذه الوتيرة لن نستطيع إنهاء السور في نهاية الشهر.

– أريد أن أراه وقد انتهى وأن يأتي أتباع "**شولتز**" هؤلاء!

الرجال سعداء لأنهم يستطيعون التصرف ولهم فائدة. الانتظار أقل طولا بالنسبة لهم عنا فنحن لانصنع شيئا.

صاح "**مارسيل**" :

– لاتصنعن شيئا! ولمن إذن– برأيك– ترك هؤلاء الشجعان كل شيء ليصبحوا جنودا. لمن إذن يعملون، لو لم يؤكدوا على الراحة والسعادة لأمهاتهم ، وزوجاتهم، وخطيباتهم؟ حماسهم للكل من أين يأتيهم ما لم يكن منكن.

صمت "**مارسيل**" وأغلقت السيدة "**سارازان**" باب المناقشة قائلة للشاب إن حب الواجب يكفي بدون شك ليشرح حماس أكبر عدد.

وعندما يُنادى على "**مارسيل**" لمهمته التي لاتعرف الرحمة ، يسرع ليكمل مشروعا وينسحب في أسف من هذا الحديث العذب ويحمل معه القرار الذي لارجعة فيه بأن ينقذ "**فرانس ڤيل**" وسكانها.

إنه لايتوقع على الإطلاق ما الذي سيحدث ، وعلى الرغم من ذلك كانت هذه هي النتيجة الطبيعية لهذا الوضع المناهض للطبيعة، وهذا التركيز في فرد واحد، وهذا هو القانون الأساسي لمدينة الفولاذ.

الفصل الخامس عشر

بورصة "سان فرانسيسكو"

بورصة "**سان فرانسيسكو**"، تعبير مكثف وبشكل ما جبري لحركة صناعية وتجارية واسعة، وهي واحدة من الأكثر حركة والأكثر غرابة في العالم كنتيجة طبيعية للموقع الجغرافي لعاصمة "**كاليفورنيا**" تتمتع بطبيعة عالمية وهي واحدة من سماتها الظاهرة.

تحت أروقتها المدهونة باللون الأحمر، الساكسوني بشعره الأشقر، وقوامه الطويل، يتقابل مع السالتي (الجنس الفرنسي) ذي البشرة غير اللامعة ذي شعر داكن وأطرافه أكثر مرونة ورقة. الزنجي يقابل الفنلندي والهندي، البولوني يرى في دهشة البلچيكي، الصيني بعينيه الضيقتين، والضفيرة المجدولة في عناية ينافس الياباني عدوه التاريخي.

كل اللغات، كل اللكنات تتصادم فيها كأنها "**بابل**" حديثة.

لم يقدم افتتاح السوق في ١٢ أكتوبر (تشرين الأول) لهذه البورصة الفريدة في العالم أي شيء غير عادي. عندما اقتربت الساعة من الحادية عشرة، يُرى السماسرة الرئيسيون ورجال الأعمال يتحدثون بمرح أو بشدة وفقا لمزاجهم الخاص، يتبادلون ضربات قبضات الأيدي، يتوجهون نحو القهوة ويبدأون أعمال اليوم، يذهبون واحدا واحدا لفتح الباب الصغير النحاسي للخزائن المرقمة التي تستلم في الردهة مراسلات المشتركين يسحب منها رزمة خطابات.

على الفور تتكون الأسعار الأولى لليوم في نفس الوقت الذي يتزايد فيه عدد الحشد، يرتفع ضجيج المجموعات التي يزداد عددها أكثر فأكثر تبدأ التلغرافات في الوصول كالأمطار من كل مكان على الأرض. لاتمر دقيقة دون أن يأتي شريط من الورق الأزرق يُقرأ وسط عاصفة من الأصوات ويذهب ليضاف إلى مجموعة التلغرافات مع حراس البورصة.

كثافة الحركة تزداد من دقيقة إلى دقيقة. يدخل التجار جريا، يعودون، ثم يسرعون إلى مكتب التلغراف يحملون الإجابات. كل البطاقات مفتوحة، مكتوبا عليها،

مشطوبة، وممزقة . نوع من الجنون المعدي كأنه أصاب الحشد عندما- نحو الواحدة- حدث شيء ما غامض مرّ بين الحشد كأنه رجفة.

خبر مدهش، غير متوقع ، لايصدق، قد حمله إليهم واحد من مساهمي بنك "**فارويست**" وانتشر بسرعة البرق.

قال البعض:

"يالها من نكتة!.. هذه حيلة!

قال الآخرون:

- ايه ! ايه ، لايوجد دخان بدون نار!

- هل يفلس المرء في وضع كهذا؟

- يفلس المرء في كل الأوضاع!

- لكن ياسيدي ، العقارات وحدها والمعدات تمثل أكثر من تسعين مليون دولار.

- دون حساب الفولاذ الاحتياطي والمنتجات المصنعة.

- تبا ! هذا ما كنت أقوله!

- في النهاية، كيف تفسر تعليق الدفع؟

- أنا لاأفسر ذلك على الإطلاق!.. أنا لاأصدقه!

- كان هذا لايحدث كل يوم وفي أكثر البيوت شهرة وصلابة.

- "**ستالستاد**" ليست بيتا ، إنها مدينة!

- على أية حال ، من المستحيل أن يكون الأمر قد انتهى!

لن يفوت إحدى الشركات أن تتكون لتستأنف أعمالها!

- لكن بحق الجحيم لماذا لم يكوّن "**شولتز**" هذه الشركة قبل أن يترك نفسه ليفلس؟

- تماما ياسيدي ، هذا لايصدق إنه خبر غير صحيح، على الأرجح أن "**ناش**"هي التي نشرته فهي تحتاج بشدة إلى رفع سعر الفولاذ!

- ليس على الإطلاق ، هذا خبر غير صحيح! ليس فقط أن "**شولتز**" قد أفلس ، لقد

هرب أيضا!

– ماذا إذن؟

– هرب يا سيدي . التلغراف الذي يعلن ذلك تم تعليقه في الحال!"

مجموعة كبيرة من الناس أسرعت نحو لوحة التلغرافات آخر شريط من الورق الأزرق مكتوب عليه ، هذه الكلمات "**نيويورك**"، الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق– البنك المركزي مصنع "**ستالستاد**" تعليق الدفع.

سبعة وأربعون مليون دولار. "**شولتز**".

اختفى في هذه المرة لم يكن هناك شك ، لقد أدهش الخبر الجميع ، وبدأت الاستنتاجات تفسر ما حدث. في الساعة الثانية، بدأت قائمة التفاليس من بينها اسم "**شولتز**" تغرق المكان ، كان "**مينينج بنك**" في "**نيويورك**" هو الأكثر خسارة ، بيت "**ويسترلي**" في "**شيكاغو**" مدين بسبعة ملايين دولار، بيت "**ميليوكي**"في "**بانالو**" خمسة ملايين ونصف ، البنك الصناعي في "**سان فرانسيسكو**" مليون ونصف ثم قائمة بيوت الدرجة الثالثة.

من ناحية أخرى ودون انتظار هذه الأخبار، ردود الفعل الطبيعية للحدث تتابعت بسرعة.

سوق "**سان فرانسيسكو**"، الثقيل في الصباح، كما يقول المتخصصون ، لم يكن كذلك بالتأكيد الساعة الثانية ! يالها من قفزات! يالها من ارتفاعات!

ياله من تتابع مجنون للمضاربات.

ارتفاع في الفولاذ لقد قفز من دقيقة إلى دقيقة!

ارتفاع في الفحم! ارتفاع في السندات لكل مصاهر الفولاذ في الاتحاد الأمريكي! ارتفاع في المنتجات المصنعة من كل أنواع صناعة الحديد! ارتفاع أيضا على أرض "**فرانس ڤيل**". كانت في الحضيض منذ إعلان الحرب، والآن ارتفعت فجأة إلى مائة وثمانين دولارا لكل فدان (حوالي أربعة آلاف متر مربع).

منذ نفس المساء. كتبت الصحف عن الخبر.

"هارلد" مثل "**لاتريبون**" "**لالتا**" مثل "**جارديان**"، "**ليكو**" مثل "**لوجلوب**" كتبت المعلومات الضئيلة والتي إذا لخصت فلن تقول شيئا في مجملها .

كل ما يعرف أن في الخامس والعشرين من سبتمبر (أيلول) أن سندا بمبلغ ثمانية ملايين دولار موقع من هر "**شولتز**" لصالح "**چاكسون إيلدر**" وشركاه من "**بافالو**" قدم إلى "**شيرينج ستراوس**" وشركاه ، صرافي ملك الفولاذ في "**نيويورك**" ، وجد هؤلاء السادة أن ميزان مدفوعات عميلهم غير كاف لتغطية هذا المبلغ الضخم، وعلى الفور أرسلو له طالبين رأيه دون أن يحصلوا على الإجابة ، فعادوا إلى دفاترهم فوجدوا لدهشتهم أنهم لم يصلهم أي خطاب ولا أي مبالغ من "**ستالستاد**" منذ ثلاثة عشر يوما ، وهذا هو تاريخ سحب هر "**شولتز**" الشيكات والسندات. خلال أربعة أيام توالت الاستفسارات على البنك من ناحية وعلى "**ستالستاد**" من ناحية أخرى .

في النهاية جاءت إجابة قاطعة :

" اختفى هر "**شولتز**" منذ السابع عشر من سبتمبر (أيلول) هكذا قال التلغراف . لاأحد يستطيع أن يحل هذا اللغز . لم يترك أوامر ، والخزائن خاوية ."

منذ ذلك الحين ، لم يعد ممكنا إخفاء الحقيقة . خشي الدائنون ووضعوا أوراقهم لدى المحكمة التجارية الساعة الثانية عشرة ظهرا، مجموع الديون المعروفة وصل إلى سبعة وأربعين مليون دولار. ذلك يؤدي إلى التنبؤ بأن الديون الكاملة تقترب من ستين مليون دولار.

هذا ما عرف وما نشرته كل الصحف. لم يكن هناك صحيفة لم ترسل مراسليها منذ الساعة الأولى إلى "**ستالستاد**" منذ مساء الرابع عشر من سبتمبر (أيلول) ، غزا الصحفيون مدينة الفولاذ ، البطاقات مفتوحة والأقلام تكتب . لكن كان هذا الجيش من الصحفيين ينكسر مثل الموجة التي تصطدم بسور "**ستالستاد**" . لم يستطيعوا الوصول على الرغم من استخدام كل وسائل الإغراء استطاعوا رغما عن ذلك أن يستنتجوا أن العمال لايعرفون شيئا وأن لاشيء قد تغير في نظام العمل. أذاع رؤساء مجموعات العمل فقط مساء أمس بأمر عال أنه لايوجد أموال في الخزائن الخاصة ولا تعليمات من المبنى

المركزي ونتيجة لذلك سيغلق العمل يوم السبت القادم ما لم يكن هناك جديد .

كل ذلك بدلا من أن يوضح الموقف لم يفعل سوى أن زاده تعقيدا ، إن هر "**شولتز**" قد اختفى منذ شهر فهذا لايشك فيه أحد . هناك شعور بأن هذه الشخصية الغامضة سوف تظهر بين دقيقة وأخرى .

في المصنع ، خلال الأيام الأولى ، استمرت الأعمال طبيعية ، تابع كل فرد عمله الجزئي في أفق قسمه المحدود .

كانت الخزائن الخاصة تدفع المرتبات كل سبت . واجهت الخزانة الرئيسية حتى هذا اليوم الضروريات المحلية .

لكن كانت المركزية محكمة إلى حد بعيد في "**ستالستاد**" . لقد احتفظ السيد لنفسه بالسيطرة المطلقة على كل الأعمال . حتى لايسبب تغيبه –في وقت قصير–توقفا في الآلات على هذا النحو ، من ١٧ سبتمبر(أيلول) ، اليوم الذي وقَّع فيه لآخر مرة ملك الفولاذ سندات ،حتى ١٣ أكتوبر (تشرين الأول) حيث ذاع خبر تعليق الدفع كأنه قنبلة ، آلاف الخطابات – عدد كبير منها احتوى بالتأكيد على مبالغ كبيرة– تمر ببريد هر "**شولتز**" وبدون شك تصل إلى مكتبه . وهو وحده له حق فتحها وتعليمها بقلم أحمر ويضع المبلغ في الخزانة الرئيسية .

أكبر الموظفين في المصنع لم يفكروا مطلقا مجرد التفكير أن يخرجوا عن اختصاصاتهم . كانوا مقهورين أمام هر "**شولتز**" –وحتى أمام ذكراه فهم ليسوا سوى أدوات بدون سلطة، بدون مبادرة، بدون صوت . كل منهم حجم في مسؤولياته الضيقة وانتظر الذي سيأتي من أحداث في النهاية، جاءت الأحداث . هذا الموقف الفريد امتد حتى اللحظة التي شعرت فيها الشركات المهتمة بالخطر، أرسلوا التلغرافات، ألحوا في طلب الرد . اعترضوا وأخيرا اتخذوا احتياطاتهم القانونية .، لقد لزم الوصول إلى هذا الموقف وقتا، يصعب التقرير بشأن الشك في هذه الثروة الطائلة لكن لقد وضح الأمر الآن : فر هر "**شولتز**" من دائنيه .

هذا كل ما استطاع الصحفيون الوصول إليه . الشهير "**مايكل چون**" بنفسه الذي نجح

في الوصول إلى اعترافات سياسية من الرئيس "**جرانت**" أكثر الرجال سكوتا في هذا القرن ، والذي لايتعب "**بلاندريوس**" المشهور. هؤلاء الصحفيون الكبار لم يستطيعوا أن يكونوا أكثر سعادة من زملائهم ، لقد اضطروا للاعتراف هم أنفسهم بأن "**لاتريبون**" و"**وورلد**" لاتستطيع أن تعطي الكلمة الأخيرة بشأن إفلاس "**شولتز**" .

مما جعل من هذه المأساة الصناعية حدثا شبه فريد، هذا الموضع الغريب "**ستالستاد**" ، هذه المدينة المنعزلة المستقلة التي لم تسمح بأي بحث منتظم وقانوني.

هذا حقا إن دائني هر "**شولتز**" محقون في أن نشاط المصنع يكفي لتعويضهم . ولكن لأي محكمة يلجأون ليأخذوا حكما بالملكية؟ "**ستالستاد**" أرض خاصة ، غير مصنفة بعد ، حيث ينتمي كل شيء لـ هر "**شولتز**" . لو كان فقط قد ترك ممثلا أو مجلس إدارة أو حتى مجلسا قانونيا ! إنه هو وحده الملك، الحاكم الأعظم ، الرئيس المحامي ، السمسار ، المحكمة التجارية لمدينته . لقد حقق في نفسه مثال المركزية. وهو غائب يجد المرء نفسه أمام عدم ، وكل هذا الصرح الرائع ينهار مثل قصر من ورق اللعب.

في كل الأحوال ، من الممكن أن يكوّن الدائنون نقابة تحل مكان هر "**شولتز**" ، تضع يدها على الأموال، تستولي على إدارة الأعمال وفقا للظاهر لايمكن تشغيل الماكينات إلا ببعض المال والسلطة.

لكن لا شيء من ذلك ممكن ، لن تسمح الإدارة القانونية بذلك. سيتوقفون أمام حاجز أخلاقي صعب المرور. بل وأصعب من السور الذي يحيط بمدينة الفولاذ رأى الدائنون سيئو الحظ أموالهم تضيع حيث وجدوا استحالة في استعادتها .

كل ما يستطيعون فعله هو أن يجتمعوا في مجلس عام، أن يتوجهوا إلى الكونجرس ويطلبوا منه وضع قضيتهم بين يديه وأن يهتم بمصلحة المواطنين وأن يضم أراضي "**ستالستاد**" إلى الأراضي الأمريكية ويدخلوا هذا الدين الضخم في القانون المشترك للمدينة . اهتم بعض أعضاء الكونجرس شخصيا بالقضية ؛ لقد جذبت هذه القضية الشخصية الأمريكية ،للأسف لم يكن الكونجرس قد عقد دورته وسيستغرق ذلك وقتا

طويلا إلى أن يستطيع النظر في القضية .

في انتظار هذه اللحظة ، لم تذهب "**ستالستاد**" بعيدا وانطفأت الأفران الواحد تلو الآخر.

كان الحزن عميقا في هذا الشعب الذي يبلغ عشرة آلاف أسرة تعيش من المصنع. لكن ماذا يفعلون؟

يواصلون العمل الذي لم يتقاضوا عنه أجرا ربما لمدة ستة أشهر أو أنه لن يأتي أبدا؟ ما العمل؟ لقد جف منبع الطلبات ، كل عملاء هر "**شولتز**" ينتظرون ليأخذوا أموالهم، الحل القانوني، رؤساء الأقسام، مهندسون ورؤساء عمال، ليس لديهم أوامر ولا يستطيعون التصرف .

حدثت اجتماعات ولقاءات ، أحاديث ، مشروعات لم يكن هناك حل ممكن ، سحبت البطالة معها موكبا من البؤس وفقدان الأمل، والآفات ، المصنع خال وامتلأت الحانات،في كل مدخنة كفت عن التدخين في المصنع ، يرى حانة تعلو مكانها في القرى المحيطة .

أكثر العمال حكمة، ورجاحة ، هؤلاء الذين عملوا حساب الأيام الصعبة، وفروا قليلا وأسرعوا بالهرب بأسلحتهم وحقائبهم- الأدوات- رحل هؤلاء وراحوا ينتشرون في أركان العالم الأربعة، واحد في الشرق وواحد في الجنوب وواحد في الشمال، مصنع آخر، بيت آخر ولكن واحدا من عشرة يستطيع تحقيق ذلك الحلم، كم منهم سمَّرهم البؤس مكانهم! هؤلاء صارت أعينهم غائرة وقلوبهم حزينة .

يبيعون قطعانهم الضعيفة للطيور الجارحة التي لها وجوه البشر والتي تحط بغريزتها على كل كارثة . لقد حرموا من القرض كما من المرتب ومن الأمل كما من العمل، ورأوا ظلام الشتاء يتمدد أمامهم مثل المستقبل البائس.

الفصل السادس عشر

فرنسيان ضد مدينة

عندما وصل نبأ اختفاء هر "**شولتز**" إلى "**فرانس ڤيل**" أول ما نطق به "**مارسيل**" :

"ماذا لو لم تكن خدعة حرب؟"

بدون شك، أدرك أن نتيجة مثل هذه الحيلة سيكون لها عواقب وخيمة على "**ستالستاد**" وبالمنطق النتيجة غير مقبولة ، لكنه قال لنفسه أيضا أن ليس للكراهية عقل ، وأن الكراهية الشديدة التي يشعر بها رجل مثل هر "**شولتز**" يجب ، في لحظة ما أن تجعله قادرا على التضحية من أجل ما يشعر به ، مهما يكن، يجب أن يبقوا على أهبة الاستعداد.

بناء على طلبه ، حرر مجلس الدفاع على الفور إعلانا يحث فيه السكان على توخي الحظر من الأخبار الخاطئة التي ينشرها العدو بهدف إخماد عزيمتهم ويقظتهم. استمرت التدريبات والأعمال مدفوعة بحماس أكبر من أي وقت تعبر عن إجابة "**فرانس ڤيل**" التي رأتها مناسبة لإرسالها ردا على حيلة هر "**شولتز**".

ولكن التفاصيل ، صحيحة أم خاطئة، التي نقلتها جرائد "**سان فرانسيسكو**"، "**شيكاغو**"، "**نيويورك**"، النتائج المالية والتجارية لكارثة "**ستالستاد**"، كل هذه المجموعة من البراهين لاتسمح بالشك..

ذات صباح، استيقظت مدينة الدكتور التي أنقذت بشكل قاطع كالنائم الذي يهرب من كابوس بفعل بسيط هو أن يستيقظ . نعم! إن "**فرانس ڤيل**"بعيدة تماما عن الخطر ، لقد توصل "**مارسيل**" إلى الإيمان المطلق بذلك.

عم المكان حركة من الانشراح والسعادة، جو عيد ، زفرة ارتياح كبيرة ، تصافح الجميع وتبادلوا التهاني، تبادلوا الدعوات على العشاء.

تزينت النساء، أخذ الرجال راحة من التدريبات ومن العمل. شعر الجميع بالأمان ،

بالرضا، وبالإشراق.

لكن الأكثر سعادة من الجميع ، كان بدون شك الدكتور "**سارازان**" الرجل الكريم كان يشعر أنه مسؤول عن مصير الجميع الذين جاءوا بثقة ليستقروا على أرضه وفي حمايته منذ شهر، الخوف من ضياعهم، هو الذي لم يكن يرى سوى سعادتهم. لم يترك لنفسه لحظة راحة. أخيرا تخلص من عبء هذا القلق المفزع وتنفس الصعداء.

على الرغم من ذلك قد وحَّد الخطر المشترك المواطنين في كل الطبقات حدث تقارب، أصبحوا إخوانا تحركهم مشاعر واحدة لهم نفس المصالح. شعر كل منهم أن شخصا جديدا ولد بقلبه من الآن فقد ولد الوطن بالنسبة لـ"**فرانس ڤيل**".

النتائج المادية لحالة الدفاع كانت إيجابية أيضا تعلموا أن يتعرفوا على مدى قوتهم. لايوجد ما يفاجئهم في المستقبل ولأي حدث هم مستعدون .

أخيرا ، أصبح مصير عمل الدكتور "**سارازان**" باهرا. وشيئا نادرا لم يظهر أحد نكران الجميل أمام صنيع "**مارسيل**" تلقى المهندس الشاب شكر الجمهور بما أنه منظم الدفاع ، على الرغم من أن سلامهم لم يكن من صنيعه.

أما "**مارسيل**" فلم يجد أن دوره قد انتهى.

الغموض الذي يغلف "**ستالستاد**" قد يشكل في حد ذاته خطرا لن يشعر بالرضا حتى يكشف الظلام الذي مازال يغلف مدينة الفولاذ.

قرر إذن أن يعود إلى "**ستالستاد**" ولا يتراجع أمام أي شيء حتى يكشف كل أسرارها.

حاول الدكتور "**سارازان**" أن يخبره بأن مشروعه سيكون صعبا ومحفوفا بالأخطار ربما يكون بمثابة الهبوط إلى الجحيم ولايعرف ماذا سيجد مُخَبَّأ تحت كل خطوة من خطواته.. هر"**شولتز**" كما وصفه له لم يكن ليختفي دون معاقبة الآخرين أو أن يدفن وحيدا تحت الأنقاض لكل آماله .. إنه محق في أن يشك في الفكرة الأخيرة لمثل هذه الشخصية .. لايمكن أن يكون ذلك سوى احتضار سمكة القرش!..

أجاب "**مارسيل**":

هذا بالضبط لأني أفكر أن كل ما تتخيله ممكن كما أني أجد أن من واجبي الذهاب إلى "**ستالستاد**" . إنها قنبلة ولي أنا أن أنزع فتيلها قبل أن تنفجر وسأطلب منك السماح لي باصطحاب "**أوكتاف**" .

صاح الدكتور:

-"**أوكتاف**" !

نعم إنه الآن ولد شجاع من الممكن الاعتماد عليه وأؤكد لك أن هذه الرحلة ستفيده!

أجاب الرجل العجوز متأثرا وهو يحتضنه:

ليحميكما الله إذن أنتما الاثنين.

صباح اليوم التالي ، أوصلت سيارة "**مارسيل**" و"**أوكتاف**" إلى باب "**ستالستاد**" بعد أن عبرت القرى المهجورة. كان الاثنان مسلحين ، ومعهما أدواتهما، مصممين على ألا يعودا دون أن يكشفا هذا الغموض .

مشيا جنبا إلى جنب على طريق السور الخارجي الذي يحيط بالمباني ، الحقيقة التي كان يشك فيها حتى هذه اللحظة ارتسمت الآن أمام عينيه. كان المصنع متوقفا تماما، هذا واضح هذا الطريق، الذي يمشيه مع "**أوكتاف**" تحت السماء السوداء بدون نجوم كان يلاحظ قبل ذلك وجود مصباح غازي، لقد اختفى من المكان عدة مظاهر للحياة ، الآن كل شيء مظلم وساكن، الموت وحده يحوم حول المدينة التي ترتفع مداخنها في الأفق كالهياكل العظمية . رنت خطوات "**مارسيل**" ورفيقه على الطريق في الفضاء كانت الوحدة والحزن مخيمين بشكل بالغ لم يستطع "**أوكتاف**" أن يمنع نفسه من أن يقول :

" هذا فريد! لم أسمع بسكون مماثل لهذا!

كأننا في قبر!"

كانت الساعة السابعة عندما وصل "**مارسيل**" و"**أوكتاف**" عند حافة الحفرة في مواجهة الباب الرئيسي لـ"**ستالستاد**" لم يظهر أي كائن حي أعلى السور، والخفراء الذين كانوا يروحون ويجيئون دون توقف لا أثر لهم. لقد رفع الجسر المتحرك تاركا أمام الباب حفرة عرضها من خمسة إلى ستة أمتار.

يلزمهم ساعة حتى يستطيعوا ربط طرف حبل بالباب برميه على طريقة رعاة البقر. لقد توصل "**مارسيل**" إلى ذلك وتعلق "**أوكتاف**" بالحبل واستطاع أن يرتفع حتى نهاية الباب ، ثم مرر إليه "**مارسيل**" الأسلحة والمؤن وأخذ طريقه بدوره.

لم يبق أمامهما سوى إعادة الحبل إلى الجانب الآخر من السور وأن ينزلا كما تسلقا.

وجد الشابان نفسيهما على الطريق المستدير، وتذكر "**مارسيل**" أول يوم دخل فيه "**ستالستاد**" .

ارتفعت المباني سوداء وصامتة وكأن نوافذها الكثيرة تنظر إلى هذين الدخيلين وكأنها تقول لهما :

اذهبا! . . إنكما تريدان النفوذ إلى أسرارنا."

قال "**مارسيل**" :

" الأفضل الهجوم على الباب (و) الذي أعرفه.

توجها نحو الغرب ووصلا إلى القوس الأثري الذي يحمل الحرف (د) . كان الباب موصدا.

اقترب "**مارسيل**" واصطدم به عدة مرات بطوبة التقطها من الأرض.

أجاب عليه صدى الصوت صاح "**أوكتاف**" :

هيا إلى العمل.

يجب أن يبدأ من جديد العمل الشاق لقذف الحبل فوق الباب حتى يجد حاجزا يتعلق فيه بمتانة كان الأمر صعبا أخيرا نجح "**مارسيل**" و"**أوكتاف**" في عبور الحائط ووجدا نفسيهما في المحور (و).

صاح "**أوكتاف**":

" حسنا ! علام إذن المشقة؟ ها نحن تقدمنا! عندما نعبر حائطا نجد آخر أمامنا!

أجاب "**مارسيل**" :

" صمت في الصف! . . ها هي ورشتي القديمة.

لايغضبني أن آراها مرة ثانية وآخذ منها بعض الأدوات التي سنحتاج إليها بالتأكيد

ولا ننسى بعض الديناميت .

هذه هي الورشة التي استقبل فيها الألزاسي الشاب عند وصوله إلى المصنع ، كم هي كئيبة الآن بأفرانها المنطفئة ، خطوطها الحديدية الصدئة ! كل ذلك محزن وشعر "**مارسيل**" بأهمية أن يتلهى عن ذلك .

قال "**أوكتاف**" وهو يشير إلى المقصف .

" هذه الورشة ستعجبك أكثر" .

أشار "**أوكتاف**" بالقبول ، ثم بالرضا عندما لاحظ مصفوفا على طاولة خشبية زجاجات حمراء ، صفراء، وخضراء . بعض العلب للأغذية المحفوظة تحمل أجود العلامات التجارية موجودة في هذا المكان ما يصلح لوجبة غذائهما ، تناول الشابان الطعام ليستمدوا القوة التي سيكملان بها عملهما .

أثناء الطعام، فكر "**مارسيل**" فيما يجب أن يفعله .

تسلق حائط المبنى الرئيسي . مستحيل هذا الحائط بالغ الارتفاع معزول عن كل المباني، لايوجد به أي بروز لتعليق الحبل . من أجل أن يجد الباب يجب أن يمر على كل الأقسام وهذه ليست عملية سهلة يبقى استخدام الديناميت ، ذلك لأنه من المستحيل أن يختفي هر "**شولتز**" دون أن يزرع الفخاخ في الأرض التي تركها، لتواجه من يريدون الاستيلاء على "**ستالستاد**" . ولكن لاشيء من ذلك يستطيع أن يجعل "**مارسيل**" يتراجع .

شاهد "**أوكتاف**" وقد ارتاح واستعاد نشاطه .توجه "**مارسيل**" معه نحو طرف الشارع الذي يكون محور القسم حتى وصلا تحت السور الكبير المصنوع من الأحجار الكبيرة .

سأل :

– ما رأيك في لغم هنا بالداخل؟

أجاب "**أوكتاف**" الذي كان مستعدا لتجربة أي شيء .

– سيكون صعبا ولكننا لسنا كسالى .

بدأ العمل . يجب أن تكشف قاعدة الحائط . وإدخال رافعة بين حجرين ، يُنزع

واحد وبواسطة مثقاب تثقب عدة ثقوب لأصابع الديناميت بشكل متواز، في الساعة العاشرة انتهى كل شيء أصابع الديناميت في مكانها وأشعل الفتيل.

أدرك "**مارسيل**" أنها ستستمر خمس دقائق وبما أنه لاحظ أن المقصف تحت الأرض ويشكل مخبأ جيدا ذهب ليحتمي به مع "**أوكتاف**".

فجأة ، اهتز المبنى والقبو نفسه كأنها هزة أرضية، انفجار هائل كأنها ثلاث أو أربع قنابل انطلقت من مدافع مرة واحدة فمزقت الأجواء . ثم بعد دقيقتين أو ثلاث، سقطت على الأرض بقايا حجارة متناثرة في كل مكان خلال لحظات استمرت الحجارة في السقوط وسط شلال من الزجاج المكسور.

أخيرا، انتهى هذا الصخب، غادر "**مارسيل**" و"**أوكتاف**" عندئذ مخبأهما.

على الرغم من اعتياده على أثر المواد المفجرة إلا أنه دهش من النتائج. سقطت حوائط كل الأقسام المجاورة للمبنى الرئيسي ، كان المشهد أقرب إلى مشهد مدينة تعرضت للقصف . من كل جانب غطى الزجاج الأرض بينما تساقطت سحب التراب على الأرض وتمددت كالثلج على الأنقاض. .جرى "**مارسيل**" و"**أوكتاف**" إلى الحائط الداخلي .

كان قد دمر أيضا بعرض من خمسة عشر إلى عشرين مترا ومن الجانب الآخر، لاحظ رسام المبنى المركزي السابق الفناء المعروف له جيدا . حيث قضى الساعات الرتيبة. لم يعد الفناء مراقبا ، لم تعد بوابته الحديدية صعبة المرور.

الصمت في كل مكان.

مر "**مارسيل**" على الورش حيث كان زملاؤه يعجبون برسمه. في أحد الأركان وجد على لوح رسم آلة بخار كان قد بدأ في رسمها عندما استدعاه هر "**شولتز**" . في الصالون وجد الصحف والكتب المعتادة.

بدت حركة كل شيء معلقة ، حياة تم توقفها فجأة. وصل الشابان إلى الحدود الداخلية للمبنى الرئيسي ووجدا نفسيهما أسفل سور رجح "**مارسيل**" أنه يفصلهما عن الحديقة.

سأل "**أوكتاف**" :

– هل يجب أن نراقص أيضا هذا السور؟

– ربما.. ، لكن لندخل نستطيع أن نبحث عن باب يفتح بسهولة.

أخذ يطوف الاثنان حول الحديقة بطول الحائط.

أخيرا بدا لهما باب صغير، منخفضا يقطع الحائط.

في دقيقتين ثقب "**أوكتاف**" ثقبا في الباب بين ألواح خشب البلوط . نظر "**مارسيل**" على الفور من خلال الثقب فعرف لفرحته أن في الجانب الآخر الحديقة الاستوائية بخضرتها الأبدية وجوّها الربيعي.

قال لرفيقه:

– باب آخر نقفزه وها نحن في المكان.

أجاب "**أوكتاف**" :

– رصاصة لهذا الباب وسيكون شرفا كبيرا له!

هم بالتعامل مع الباب فاهتز بالكاد ، وسمعا أزيز القفل الداخلي وهو يفتح بالمفتاح.

فُتح الباب قليلا وهو ممسوك بسلسلة غليظة من الداخل.

قال صوت أجش:

– من هنا؟

الفصل السابع عشر

تفسير بطلقة رصاص

توقع الشابان كل شيء سوى هذا السؤال. لقد دهشا أنه لم يكن طلقة رصاص.

في كل الاستنتاجات التي توقعها "**مارسيل**" بشأن هذه المدينة النائمة لم يكن بينها أن كائنا حيا يسأله في هدوء عن سبب الزيارة ما يفعله عمل شبه شرعي إذ إن "**ستالستاد**" أصبحت مدينة مهجورة، وهي ليست كسابق عهدها حيث كانت مدينة آهلة بالسكان. إن ما يفعله في المقام الأول هو كشف أثري.

كل هذه الأفكار تواردت في ذهن "**مارسيل**" بقوة حتى إنه بقي صامتا من الصدمة.

كرر الصوت بالألمانية وقد نفد صبره.

– من هنا؟

من أجل الوصول إلى هذا الباب عبرا الكثير من الحدائق المتنوعة، تسلقا الحوائط كل ذلك ولا يعرفان الإجابة على سؤال بسيط مثل هذا " من هنا؟"

انتبه "**مارسيل**" إلى صعوبة موقفه وقال على الفور بالألمانية:

"صديق أو عدو كما تشاء! أريد الحديث مع هر "**شولتز**". سمع عبر الباب الموارب الإجابة.

عبر الفتحة لمح "**مارسيل**" شاربا كثيفا وعينا زائغة، سرعان ما تعرف عليها. إنه "**سيجيمار**"، حارسه السابق. صاح العملاق في دهشة ممزوجة بالفرح.

– "**چوان شوارتز**"! "**چوان شوارتز**"!

ظهور سجينه المفاجئ بعد اختفائه الغريب قد أدهشه.

كرر "**مارسيل**":

" هل أستطيع أن أقابل هر "**شولتز**"؟

هز "**سيجيمار**" رأسه.

قال :

– لايوجد إذن! لاتستطيع أن تدخل هنا بدون إذن!

– هل تستطيع على الأقل أن تخبر هر "**شولتز**" أنني هنا وأرغب في محادثته؟

أجاب العملاق وفي كلامه مسحة حزن.

– هر "**شولتز**" ليس هنا! هر "**شولتز**" رحل!

لكن أين هو ؟ متى سيعود؟

– لا أعرف ! القانون لم يتغير! لا أحد يدخل هنا بدون إذن!

هذه الجمل المتقطعة أوصلت إلى "**مارسيل**" كل ما يريد "**سيجيمار**" أن يقوله .

نفد صبر "**أوكتاف**" ، قال:

" وما فائدة الحصول على إذن للدخول؟ ومن الأسهل أن ندخل.

راح يصطدم بالباب محاولا فتحه ولكن قاومت السلسلة ، وأغلق "**سيجيمار**" الباب.

قال "**أوكتاف**" وقد شعر بالإهانة لهذه النتيجة.

– لابد أن هناك الكثيرين خلف هذا الباب.

نظر عبر ثقب الباب صاح دهشا:

هناك عملاق ثان.

أجاب "**مارسيل**" :

– "**أرمينيوس**" ؟

ونظر بدوره من خلال فتحة الباب .

– نعم إنه "**أرمينيوس**" زميل "**سيجيمار**" !

فجأة صوت آخر يبدو وكأنه قد جاء من السماء جعل "**مارسيل**" يرفع رأسه.

قال الصوت:

– من هنا؟ إنه صوت "**أرمينيوس**" هذه المرة.

تخطى رأس الحارس قمة السور لابد أنه صعد على سلم.

أجاب "**مارسيل**" :

- هيا . أنت تعرفني جيدا يا "**أرمينيوس**" هل تريد أن تفتح نعم أم لا ؟

لم يكمل كلماته حتى ظهرت ماسورة بندقية من فوق السور ورن صوت انفجار واستقرت رصاصة في قبعة "**أوكتاف**" .

صاح "**مارسيل**" الذي وضع أصبع ديناميت تحت الباب " إيه حسنا! هذا هو الرد عليك.

بمجرد أن انفجر الباب قذف "**مارسيل**" و"**أوكتاف**" نفسيهما داخل الحديقة.

عند الحائط المدمر بفعل الانفجار وجدا سلما وأسفله آثار دماء. ولكن لا أثر لـ"**سيجيمار**" ولا "**أرمينيوس**" .

فتحت الحدائق أمام الدخيلين بكل روعتها وخضرتها، فتن "**أوكتاف**" مما رأى.

قال:

" إنها رائعة! لكن كن حذرا .. هذان العملاقان ربما يكونان خلف الشجيرات!

افترق "**أوكتاف**" و"**مارسيل**" وأخذ كل منهما جانبا من الممر الذي فُتح أمامهما ، تقدما بحرص من شجرة إلى أخرى من حاجز إلى آخر وفقا لمبادئ الاستراتيچية الفردية.

كان الحرص نوعا من الحكمة. لم يتقدما مائة خطوة حتى دوّى صوت طلقة ثانية ، استقرت الرصاصة عند شجرة قد غادرها "**مارسيل**" توا.

قال "**أوكتاف**" :

- لاترتكب حماقات!.. انبطح على الأرض!

انبطح وزحف على ركبتيه وكوعيه حتى شجيرة شائكة تحف النقطة المستديرة التي في مركزها يرتفع "**برج الثور**" . سمع "**مارسيل**" طلقة الرصاص الثالثة فراح يحتمي بنخلة حتى يتجنب الطلقة الرابعة.

صاح "**أوكتاف**" لرفيقه الذي ابتعد عنه حوالي ثلاثين خطوة.

– من حسن الحظ أن هؤلاء الحيوانات تطلق النار بدون مهارة أجاب "**مارسيل**" :

– صه! هل ترى الدخان الذي يخرج من هذه النافذة ، في الدور الأرضي؟.. إنهما هناك!. لكني أريد أن ألاعبهما دورا على طريقتي.

في لمح البصر، قطع "**مارسيل**" خلف الشجرة فرع شجرة بطول معقول ثم تخلص من سترته وعلقها في الفرع ووضع عليه قبعته فصنع بذلك (مانيكان) مقبولا زرعه في المكان الذي يشغله بطريقة تجعل القبعة واضحة والكمّيْن وتسلل حتى "**أوكتاف**" وهمس في أذنه: أشغلهم من هنا بأن تطلق عليهما النار مرة من مكانك ومرة من مكاني! وأنا سآخذهما من الخلف.

و"**مارسيل**" ، تاركا "**أوكتاف**" يطلق النار، تسحب خلسة في الحشائش التي تحيط بالبرج.

مضى ربع ساعة، تبادلوا خلالها. طلقات النار بدون نتيجة.

تحولت سترة "**مارسيل**" إلى منخل أما شيش النافذة فقد تحول إلى فتات بفعل طلقات "**أوكتاف**".

فجأة، توقف ضرب النار وسمع "**أوكتاف**" هذه الصيحة المختنقة.

" إنه لي !.. مسكته!

ترك مخبأه واندفع ليكشف المكان قفز إلى النافذة، استغرق الأمر نصف دقيقة ، بعد لحظة ، كان في الصالون. على السجادة ، تشابك "**مارسيل**" و"**سيجيمار**"في عراك بدون أمل. دهشا لدخول عدوهما المفاجئ الذي فتح الباب الخلفي فجأة. لم يستطع استخدام ذراعيه . لكن قوته الهرقلية جعلته خصما لدودا . وعلى الرغم من سقوطه على الأرض لم يفقد الأمل أن يتفوق"**مارسيل**" بما له من قوة ومرونة ملحوظة.

كان العراك سينتهي حتما بموت أحد المتصارعين لو لم يتدخل "**أوكتاف**" في الوقت المناسب لتكون النتيجة أقل تراچيدية، أمسك "**سيجيمار**" من ذراعيه وربطه بحيث لايستطيع الحراك.

سأل "**أوكتاف**" :

– والآخر؟

أشـار "**مارسـيل**" إلى نهـاية الحجـرة حيث كـان "**أرمـينـيوس**"ممددا على أريكة وهو يدمي.

سأل "**أوكتاف**" :

– هل أصابته رصاصة؟

أجاب "**مارسيل**" :

– نعم!

ثم اقترب من "**أرمينيوس**" قال:

– مات!

أجاب "**مارسيل**" :

– ها نحن سادة المكان . سنجري زيارة حادة . أولا مكتب "**شولتز**" !

من الصالون الذي شهد آخر المعارك ، تابع الشابان التقدم في المكان الذي يؤدي إلى معبد ملك الفولاذ.

أبدى "**أوكتاف**" إعجابه الشديد لكل هذه الروعة.

ابتسم "**مارسيل**" وهو ينظر إليه وهو يفتح الباب تلو الآخر حتى الصالون الأخضر.

توقع أن يجد به جديدا ، لكن لاشيء بهذه الغرابة مثل أمام عينيه من قبل .لقد قيل إن المكتب المركزي للبريد في "**نيـويورك**" أو "**باريس**" قد انتقل إلى هذا الصالون في فوضى.

الخطابات في كل مكان على المكتب ، على الأثاث ، على السجاد . إنها كالفيضان غاصت ساقاه في الخطابات .

كل المراسلات المالية، الصناعية والشخصية الخاصة بـ هر "**شولتز**" متراكمة يوما تلو الآخر في الصندوق الخارجي للحديقة وينقلها بوفاء "**أرمـينيـوس**"و"**سيجيمار**" إلـى

مكتب سيدهما .

كم من الأسئلة ، والمعاناة والانتظار ، والبؤس ، والدموع تحويها هذه الأظرف الصامتة الموجهة لـ هر "**شولتز**" .

كم من الملايين أيضا بدون شك في الأوراق والشيكات والأذون من كل نوع! .. كل ذلك نائم هنا، بدون حراك في غياب اليد الوحيدة التي لها الحق في فتح هذه الأظرف .

قال "**مارسيل**" :

– علينا الآن أن نجد الباب السري للمعمل!

بدأ يرفع كل الكتب من المكتبة . دون جدوى . لم يتوصل إلى اكتشاف الممر الخفي الذي عبره ذات يوم بصحبة هر "**شولتز**" دون جدوى هز اللوحات . دق على الحائط آملا أن يسمع رنين الفراغ! من الواضح أن هر "**شولتز**" خشي ألا يكون الوحيد الذي يعرف سر الباب فألغاه .

لكنه بالتأكيد فتح بابا آخر.

سأل "**مارسيل**" نفسه:

– أين؟ لايمكن أن يكون إلا هنا بما أن "**أرمينيوس**" و"**سيجيمار**" قد حملا الخطابات إلى هنا! هنا إذن استمر هر "**شولتز**" في البقاء بعد رحيلي ! أعرف عاداته أراد أن يكون هناك ممر آخر بعيدا عن الأعين ربما تحت السجادة؟

ليس واضحا بالسجادة أي قطع . ربما رفعها قبل أن يعمل بالأرض . فحص الباركيه لايوجد أي أثر.

سأل "**أوكتاف**" :

– من قال لك إن الفتحة في هذا المكان؟

أجاب :

– أنا متأكد من ذلك .

قال وهو يصعد على المقعد :

– لم يبق إذن سوى أن أفحص السقف .

خطة أن يتسلق العمود حتى المصباح وأن يفحص السقف بظهر البندقية.

تعلق "**أوكتاف**" بالعمود ولدهشته وجد المصباح الذي يعلو العمود يهبط ويدور السقف ليكشف عن ثقب واسع حيث نزل منه سلم أوتوماتيكي حتى أرض الباركيه.

إنها دعوة للصعود.

قال "**مارسيل**" في هدوء: هيا إذن ها نحن !

انطلق إلى السلم ومعه صديقه.

الفصل الثامن عشر

لُبُّ النواة

تعلق السلم الحديدي عند آخر درجة بأرضية الباركيه نفسها لقاعة فسيحة مستديرة غير متصلة بالخارج .

كانت هذه القاعة ستكون غارقة في الظلام التام، ما لم يتسلل إليها من خلال نافذة زجاجية سميكة ضوء أبيض كأنه قرص القمر في اللحظة التي يكون فيها في مواجهة الشمس فيظهر في كامل صفائه.

كان الصمت مطلقا بين هذه الحوائط الصماء العمياء التي لاتستطيع أن تسمع أو ترى ، اعتقد الشابان أنهما في غرفة ملحقة بمقبرة.

تردد "**مارسيل**" قبل أن يميل نحو النافذة الزجاجية اللامعة. وصل إلى هدفه ! من هنا، سيخرج السر الذي جاء من أجله إلى "**ستالستاد**" !

لم يستمر تردده سوى لحظة واحدة جثا "**مارسيل**" و"**أوكتاف**" على ركبتيهما بالقرب من الدائرة وأحنيا رأسيهما لينظرا إلى الحجرة التي تحتهما.

وجدا مشهدا مفزعا . هذا القرص يكبر الأشياء بشكل كبير.

هنا المعمل السري لـهر "**شولتز**" . الضوء الشديد الذي يخرج من خلال القرص يأتي من مصباح مزدوج لم تكف البطارية عن إمداده بالتيار. وسط الغرفة، في هذا الجو المبهر، هيئة رجل مُكبر جدا بفعل العدسة شيء مثل أبي الهول يجلس في سكون.

حول هذا التمثال ، شظايا تفترش الأرض.

لم يعد هناك شك! .. إنه هر "**شولتز**"! المعروف بهذا الفك، هذه الأسنان اللامعة ولكن هر "**شولتز**" عملاق، والذي حوله انفجار إحدى قنابله بعد أن اختنق وتجمد في نفس الوقت.

كان ملك الفولاذ أمام طاولته يمسك قلما عملاقا يبدو أنه مازال يكتب ، عند النظر لعينيه وسكون فمه يخيل لمن يراه أنه حي. مثل حيوانات الجاموس التي يعثرون عليها

متجمدة في المناطق القطبية، هذه الجثة هنا منذ شهر مختفية عن كل العيون ، حوله تجمد كل شيء .

"**مارسيل**" على الرغم من رعب الموقف شعر بالرضا؛ لأنه استطاع أن يرى من الخارج داخل هذا المعمل ذلك لأنهما بالتأكيد كانا سيموتان هو و"**أوكتاف**" لو دخلا المعمل .

كيف حدث إذن هذا الحادث المفزع؟

تخيل "**مارسيل**" ما حدث بدون مشقة عندما لاحظ بقايا القنبلة مبعثرة على الأرض وهي ليست سوى قطع صغيرة من الزجاج أو الغلاف الداخلي الذي يحتوي على حمض الكربون السائل في القذائف نظرا للضغط الذي تتحمله فهي مصنوعة من نوع خاص من الزجاج يفوق في تحمله الزجاج العادي، وقد حدث عيب في هذا المنتج كما أدى إلى الانفجار المفاجئ فتحول حمض الكربون إلى حالته الغازية فانخفضت درجة الحرارة بشكل كبير جدا وبذلك فاجأ الموت هر "**شولتز**" في مكتبه. لقد مات على الحال التي كان عليها لحظة الانفجار وتحول إلى مومياء في الحال وسط حرارة أقل من الصفر بمائة درجة .

لقد تأثر "**مارسيل**" بذلك مات ملك الفولاذ وهو يكتب . لكن ما الذي كان يكتبه على هذه الورقة بهذا القلم الذي مازال في يده؟ قد يكون مهما أن يعرف آخر أفكاره، ، أن يعرف آخر كلمة لرجل كهذا .

لكن كيف يحصل على هذه الورقة؟ لايجب أن يفكر لحظة واحدة في كسر القرص المضيء لينزل المعمل غاز حمض الكربون مخزن تحت ضغط هائل ولو خرج تسبب في اختناق كل كائن حي ، هذا سيؤدي إلى موت محقق. من الواضح أن المخاطر أكثر من المكاسب التي يمكن الحصول عليها من اقتناء هذه الورقة.

لم يكن من الممكن الحصول على ورقة هر "**شولتز**" ، ولكن كان من المحتمل قراءتها من خلال القرص المستدير فهو عدسة مكبرة و"**مارسيل**" يعرف خط هر "**شولتز**" وبعد عدة محاولات ، توصل "**مارسيل**" إلى قراءة الأسطر العشرة التالية:

بما أن كل ما يكتبه هر "**شولتز**" كان أمرا وكذلك تعليما .

أمر إلى ب.ك.ر.ز تقديم قصف "**فرانس فيل**" خمسة عشر يوما بمجرد استلام هذا الأمر نفذوا الإجراءات التي اتخذتها – يجب أن تكون التجربة في هذه المرة مدمرة وكاملة لاتغيروا قيد أنملة مما قررت.

أريد في خلال خمسة عشر يوما أن تصبح "**فرانس ڤيل**"مدينة ميتة ولايبقى حيا أي كائن من سكانها أريد بومباي حديثة ، وأن يكون في نفس الوقت فزع للعالم أجمع إذا نُفذت أوامري بدقة ستكون النتيجة حتمية.

"سترسلون إليَّ جثتي الدكتور "**سارازان**" و"**مارسيل بروكمان**" أريد أن أراهما وأحصل عليهما .

"**شولتز**"

كان هذا التوقيع غير كامل .

بقي "**مارسيل**" و"**أوكتاف**" صامتين وساكنين أمام هذا المشهد الغريب ، أمام هذه العبقرية الشريرة. لكن يجب أن يبتعدا عن هذا الموقع الكئيب. غادر الصديقان القاعة متأثرين هنا ، في هذه المقبرة حيث تسيطر الظلمة الكاملة عندما تنطفئ عند انقطاع التيار الكهربي ستبقى جثة ملك الفولاذ وحيدة، جافة مثل مومياوات الفراعنة التي لم يفلح عشرون قرنا في أن تحولها إلى تراب.

بعد ساعة ، بعد أن فكا وثاق "**سيجيمار**" غادر "**مارسيل**" و"**أوكتاف**" "**ستالستاد**" وعادا إلى "**فرانس ڤيل**" في نفس المساء.

كان الدكتور "**سارازان**" يعمل في مكتبه عندما أعلنوا مجيء الشابين.

صاح:

– ليدخلا ، ليدخلا بسرعة!

قال عندما رآهما :

– إنه حسن؟

أجاب "**مارسيل**" :

– دكتور ، الأخبار التي حملناها لك من "**ستالستاد**" ستجلب لتفكيرك الراحة مدة طويلة. لم يعد هناك هر "**شولتز**" هر "**شولتز**" مات!

صاح دكتور "**سارازان**" :

– مات!

بقي الدكتور الطيب مفكرا بعض الوقت أمام "**مارسيل**" دون أن ينبس بكلمة..

قال :

– طفلي المسكين هل تعلم أن هذا الخبر الذي يجب أن يسعدني بما أنه يبعد عني خطر الحرب، الحرب غير العادلة ، غير الهادفة! هل تعرف أنه ، على الرغم من كل شيء قد أحزنني ! آه! لماذا هذا الرجل ذو القدرات العالية أراد أن يكون عدوا لنا؟ لماذا لم يضع صفاته العقلية النادرة في خدمة الخير؟

كم من جهد ضاع كان من الممكن الاستفادة به.

لو كنا جمعنا جهدنا مع جهده وأصبح لنا هدف مشترك!

هذا أول ما أدهشني عندما قلت لي هر "**شولتز**" مات. لكن الآن أرو لي ياصديقي الذي تعرفه عن هذه النهاية غير المتوقعة.

قال "**مارسيل**" :

– لقي هر "**شولتز**" الموت في معمله الغامض الذي جعله بطريقة شيطانية صعب الوصول إليه لا أحد غيره كان يعرف وجوده ونتيجة لذلك لم يدخله أحد لإنقاذه. كان إذن ضحية للمركزية مركزية القوى بين يديه التي اعتمد عليها حتى يكون له وحده مفتاح كل العمل ، وهذه المركزية ، في الساعة التي حددها الله قد انقلبت عليه وضد هدفه!

أجاب الدكتور:

– لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، في الواقع ، أفضل حكومة هي التي بعد موت رئيسها تستطيع أن تجد من يحل مكانها بسهولة والتي تستطيع أن تستمر في العمل لأن ليس هناك سر.

أجاب "**مارسيل**" :

- سترى يا دكتور أن الذي حدث في "**ستالستاد**" هو خلاف ما تقول تماما ، وجدت "**شولتز**" جالسا أمام مكتبه. النقطة المركزية منها تخرج كل الأوامر التي تصيغها مدينة الفولاذ دون أن يناقشها أحد أبدا. إلى هذا الحد ترك له الموت كل مظاهر الحياة حتى إنني اعتقدت أن هذا التمثال حي وسيكلمني .. ولكن كان المخترع شهيد اختراعه!

لقد انفجرت فيه إحدى قنابله التي كانت ستنهي حياة مدينتنا! انكسر سلاحه في يده في اللحظة نفسها التي كان يكتب فيها آخر خطاب أمر! اسمع وقرأ "**مارسيل**" بصوت عال السطور التي كتبها هر "**شولتز**" بيده.

ثم أضاف :

"ما أكد لي أن هير "**شولتز**" قد مات ، إذ شككت في ذلك طويلا ، أن كل شيء كف عن الحياة حوله!

أن كل شيء توقف عن التنفس في "**ستالستاد**" !

كما في قصر الأميرة النائمة، علق النوم الحياة كلها وأوقف الحركة! شلل السيد أدّى إلى شلل الخدم وامتد إلى الأدوات .

أجاب دكتور "**سارازان**" :

- نعم. كانت هناك عدالة الله ! لقد أراد أن يسرع بضربنا مما أدى إلى التعجيل بموته.

أجاب "**مارسيل**" :

- هذا صحيح . ولكن الآن يا دكتور لانفكر في الماضي ولنفكر في الحاضر. مات هر "**شولتز**" إذا كان ذلك سلاما بالنسبة لنا . فهو أيضا دمار للمؤسسة الرائعة التي أنشأها. لقد أعماه من ناحية نجاحه ومن ناحية أخرى كراهيته لـ"**فرنسا**"ولك ، لقد اخترع العديد من الأسلحة ، دون أن يأخذ الضمانات الكافية لما قد يكون عدوا .

على الرغم من ذلك ، وبالرغم من أن دفع ديونه يستطيع أن ينتظر ، إني أعتقد أن يدا قوية تستطيع أن تعيد "**ستالستاد**" على قدميها وتحول للخير القوى التي حشدتها للشر، ليس لـ هر "**شولتز**" سوى وريث واحد يا دكتور، وهذا الوريث هو أنت،لايجب ترك عمله للفناء .

يعتقد في هذا العالم أنه من الممكن الاستفادة من القوى المنافسة الزائلة . أعتقد أنك متفق معي في إنقاذ ما تبقى وكل ما يمكن أن يخدم البشرية ، إني مستعد لأن أكرس نفسي لهذه المهمة.

أجاب "**أوكتاف**" وهو يصافح صديقه :

– "**مارسيل**" محق وهأنا مستعد لكي أعمل تحت أمره إذا وافق أبي على ذلك.

قال دكتور "**سارازان**" :

– إني أوافقكما يا طفلي العزيزين . نعم يا "**مارسيل**" لاينقصنا رؤوس الأموال، وبفضلك سنعيد بناء ترسانة الأدوات في "**ستالستاد**" حتى لايفكر أحد في العالم في مهاجمتنا وبما أننا سنكون الأقوى وسنحاول أن نكون في نفس الوقت الأقرب إلى العدالة سنحب السلام والعدل لكل المحيطين بنا . آه! يا "**مارسيل**" كم هي أحلام جميلة! وعندما أشعر أنني معك ، أستطيع أن أرى أن جزءا منها قد تحقق ، أسأل نفسي لماذا .. نعم لماذا ليس لدي ولدان! لماذا لست أخا لـ"**أوكتاف**" !.. لنا نحن الثلاثة ليس هناك مستحيل.

الفصل التاسع عشر

عمل خاص بالعائلة

ربما خلال أحداث هذه الرواية لم يعرض بشكل كاف المسائل الشخصية للأبطال . وهذا سبب للعودة إليها ليفكروا أخيرا لأنفسهم بأنفسهم.

الدكتور الطيب ، يجب أن يقال ذلك، لاينتمي تماما إلى المجموعة ، البشرية حتى يختفي الفرد تماما بالنسبة له.

لقد انزعج من الشحوب المفاجئ الذي طرأ على وجه "**مارسيل**" عند كلماته الأخيرة حاولت عيناه قراءة عيني الشاب لتكشف ما يشعر به .، سأل صمت الدكتور العجوز صمت المهندس الشاب وانتظر أن يقطعه هذا الأخير ، ولكن استعاد "**مارسيل**" سيطرته على نفسه واستعاد هدوءه ، واستعادت بشرته لونها الطبيعي وبدا ينتظر بقية الحديث.

اقترب الدكتور "**سارازان**" من صديقه الشاب وأمسك ذراعه كما يمسك ذراع المريض ليقيس له النبض .

تركه "**مارسيل**" يفعل دون أن يلاحظ غرض الدكتور وبما أنه لم يفتح شفتيه قال له صديقه العجوز :

– "**مارسيل**"سنستأنف لاحقا حديثنا عن مستقبل "**ستالستاد**" . لكن ليس ممنوعا أن نناقش تحسين مصير الجميع، أن نهتم بمصير من نحبهم، من نلمسهم من قريب . إيه حسنا، أعتقد أن الوقت قد حان لأروي لك، ما أجابت به فتاة شابة سأخبرك باسمها حالا، منذ وقت ليس ببعيد على والدها ووالدتها عند طلبها للزواج للمرة العشرين خلال العام . طلبات الزواج كان أغلبها صعب الرفض إلا أن الفتاة الشابة كانت تجيب لا ودائما لا !

في هذه اللحظة، بحركة مفاجئة تخلص "**مارسيل**" من قبضة الدكتور كأن الدكتور لم يشعر بذلك أو كأنه اطمأن على صحة مريضه، استمر الدكتور في حديثه دون أن يعير ما حدث أي اهتمام.

– ولكن أخيرا قالت الأم لابنتها الشابة ، قولي لنا على الأقل ما أسباب هذا الرفض المتكرر. التعليم ، الثروة، المركز المشرف، مزايا بدنية، كل شيء موجود ! لماذا لا صارمة ، حاسمة لطلبات لاتعطيها عناء الاهتمام؟

" تحت هذا الإلحاح من والدتها قررت الفتاة أخيرا أن تتكلم قررت أن تقطع الصمت وهذا ما قالته :

" إني أجيبك لا بكل صدق كما أني كنت سأجيبك بنعم يا أمي إذا كانت نعم تخرج من قلبي ،إني أوافقك أن عددا كبيرا من المتقدمين لخطبتي على درجات متفاوتة من القبول وهذا يعني أن أغنى من في المدينة لن يضطرني للإجابة بنعم، وسأجرؤ على أن أقول لك بما أنك تريدين ذلك أن أحدا من تلك الطلبات لا أنتظرها فالعرض الذي أنتظره للأسف قد يجب علي أن أنتظره طويلا .

قالت الأم في دهشة:

– إيه ، ماذا يا آنستي أنت..

" لم تكمل جملتها فهي لاتعرف كيف تكملها .

التفتت إلى زوجها تطلب منه بنظراتها أن يساعدها " لكن إما أنه لم يرد الدخول في هذه المناقشة ، وإما أنه أراد أن يتضح الأمر أكثر بين البنت ووالدتها قبل أن يتدخل ، بدا الأب غير مدرك والطفلة المسكينة متوردة من الإحراج أو ربما من الغضب ، اختارت أن تصل إلى النهاية:

استطردت:

– لقد قلت لك يا أمي إن الطلب الذي أنتظره ربما يتأخر ، وربما لايحدث أبدا أضيفي أن هذا التأخير غير منته وهو لايدهشني ولا يجرحني . إني تعسة لأني غنية والذي عليه أن يطلبني فقير جدا لذلك فهو لن يفعل ومعه حق. عليه أن ينتظر..

قالت الأم وكأنها لاتريد الابنة أن تكمل كلماتها .

– لماذا ليس علينا نحن أن نصل؟

" كان يجب أن يتدخل الزوج.

قال وهو يمسك يدي زوجته:

– صديقتي العزيزة لقد اعتادت ابنتك العزيزة أن تستمع إلى امتداحك لهذا الصبي الجميل الشجاع الذي نعتبره فردا من الأسرة أنت التي تلاحظين صلابة شخصيته وتصفقين لما يقول زوجها في أي مناسبة يمتدح فيها ذكاءه الخارق ، عندما يتحدث بعطف عن نجاحاته الباهرة! إذا كانت ترى هذا الشاب يحظى بالاحترام لدى الجميع ووالدها ووالدتها. لو لم تلاحظ كل ذلك بدورها لأخلت بواجباتها .

ارتمت الفتاة بين ذراعي والدتها لتخفي خجلها وصاحت !

– آه يا أبي . لقد عرفت لماذا أجبرتني على الكلام؟

استطرد الأب :

– لماذا ؟ لكي أسعد بسماعك ياصغيرتي لأتأكد من أنني لست مخطئا، لأستطيع أخيرا أن أخبرك وأجعل والدتك تخبرك بأننا موافقان على الطريق الذي اتخذه قلبك وأن اختيارك قد أكمل أمانينا.

ولأوفر على الشاب الفقير المعتد بنفسه أن يقوم بطلب يدك فسأفعل أنا ذلك عنه– نعم سأفعل!

لقد قرأت ما في قلبه مثل ما هو في قلبك! كوني مطمئنة إذن ! في أفضل فرصة سأسمح لنفسي بأن أطلب من "**مارسيل**" إذا كان ممكنا وإذا كان ذلك يعجبه أن يصبح صهري!

لشدة دهشته، انتصب "**مارسيل**" على قدميه كأنه مدفوع بسوستة. صافحه "**أوكتاف**" في صمت بينما مدَّ إليه دكتور "**سارازان**" ذراعيه . كان الألزاسي الشاب شاحبا كالموتى . لكن أليس هذا مظهرا للسعادة عند من لديهم أرواح قوية؟

الفصل العشرون

الخاتمة

تخلصت "**فرانس ڤيل**" من قلقها ، تعيش في سلام مع جيرانها ، مدارة بشكل جيد، سعيدة بفضل حكمة سكانها، فهي في كامل الازدهار، سعادتها هي جديرة بها، لم يكن لها حاقدون، وقوتها فرضت احترامها على محبي القتال.

مدينة الفولاذ لم تكن سوى مصنع جميل الذي كان أداة تدمير في يد هر "**شولتز**" الحديدية ولكنه تحول بفضل "**مارسيل بروكمان**" إلى مركز لإنتاج كل الأدوات النافعة،أصبح "**مارسيل**" منذ عام من أسعد الأزواج مع "**چان**" وجاء مولد طفل ليكمل سعادتهما.

أما "**أوكتاڤ**" فكان مطيعا لأوامر زوج أخته والثاني في كل أعماله، وأخته بصدد تزويجه من إحدى صديقاتها وهي ساحرة ولديها كل الصفات الصالحة والعقل الذي سيحمي زوجها من السقوط.

لقد تحققت أماني الدكتور "**سارازان**" وزوجته وسيكونان في قمة السعادة والمجد إذا كان للمجد مكان في برنامج طموحاتهما الشريفة.

يمكننا إذن التأكيد منذ الآن أن المستقبل ينتمي إلى جهود الدكتور "**سارازان**" و"**مارسيل بروكمان**"، وأن مثالي "**فرانس ڤيل** " و"**ستالستاد**" ، مصنع ومدينة نموذجية لن يضيعا بالنسبة للأجيال القادمة.

تمّت بعون الله

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى تاريخ طباعة الكتاب الموجود بين يديك .

سارع الآن بإرسال طلبك.

ولا تنسى أن تُرْسِل شيك بقيمة ما تطلب من كتب حتى لا تُهْمَل رسالتك.

تُرسَل الطلبات بموجب شيك مصرفي باسم "**دار البشير**" مسحوب على أي مصرف في لبنان وبالدولار الأميركي. ودار البشير لا تتحمل مسؤولية إرسال أي مبالغ نقدية داخل الرسائل.

ويجب أن يُكتب على الشيك عبارة (يُصرف للمستفيد الأول فقط)

تُرسل الطلبات على العنوان التالي :

دار البشير ص.ب 5329-13 بيروت – لبنان.

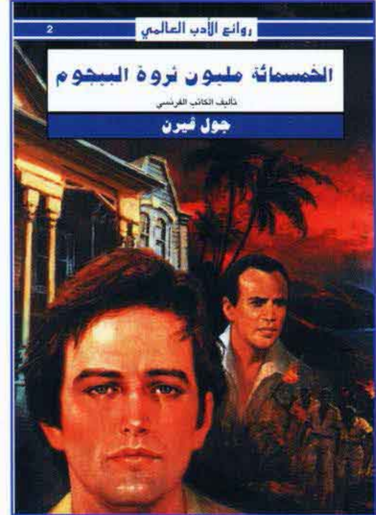
وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى الآن مع أسعارها بالدولار الأميركي شاملة أجور البريد.

ثمن أي كتاب 7 دولارات أميركية.

إدفع ثمن خمس (5) كتب واحصل على السادس (6) مجاناً.

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١	أوديب	أندريه جيد
٢	الخمسمائة مليون ثروة البيجوم	جول فيرن
٣	الحرب والسلام	ليو تولستوي
٤	مدام بوڤاري	جوستاف فلوبير
٥	سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٦	البؤساء	فيكتور هوجو
٧	الثأر للوطن	جون شتينبك
٨	الخاطئة	سومرست موم
٩	الأمير	نيكولاس ماكيافلي
١٠	الإلياذة	هوميروس
١١	الكونت دي مونت كريستو	ألكسندر ديماس
١٢	أرواح هائمة	سومرست موم
١٣	المقامر	فيودور دستوفسكي





"جول ڤيرن"

١٨٢٨ - ١٩٠٥

كاتب فرنسي ساخر ويعد رائد رواية السبق العلمي. خمسمائة مليون فرنك! كنز البيجوم "جوكول"! لم يصدق الدكتور "ساراسين" ذلك! يمكن أن يصبح حلمه أخيرا حقيقة. مدينة مثالية حيث يسيطر عليها الانسجام والسلام بين البشر. من أرض مهجورة أظهر "فرانس ڤيل" وهو مكان في "أورجون" بالولايات المتحدة.

لكن ها هو البرفيسور "شوتز" يطالب بنصيبه في الإرث. ومشروعاته ذات طبيعة أخرى... لقد شيد إلى جانب "فرانس ڤيل" قلعة عسكرية عليها حراسة مشددة: مدينة "أسيه". ما السر المزعج الذي يختفي وراء هذا المصنع؟ وهذه المدافع المخيفة التي تبلغ خمسمائة طن؟ ضد من تُوجه هذه المدافع؟ هذا ما يريد الشاب "ألساسين" اكتشافه. يلزمه أن يتصرف بسرعة! مواجهة المصاعب الخطيرة! إحباط المكائد الشيطانية! هل حياة آلاف الأبرياء معرضة للمجازفة؟ "مارسيل بروكمان" متأهب لكل شيء من أجل إنقاذهم. لكن الشجاعة وحدها لا تكفي للتغلب على البروفيسور الخطير "شوتز".


ISBN 9953-443-15-7

9 789953 443157